"The final invasion"

a novel by Hussain Dashti

حسين دشتي

# الإجتياح الأخير



رواية

دار الأمير

بسم الله الرحمن الرحيم

الإجتياح الأخير

# الإجتياح الأخير

حسين دشتي

| | |
|---|---|
| إسم الكتـاب : | الاجتياح الأخير |
| إسم المؤلـف : | حسين دشتي |
| تنضيد وإخـراج : | عبد الحسين دهيني |
| تصميم الغـلاف : | أحمد حمود |
| الطبعة الأولى : | 2011م- 1432هـ. |
| الترقيم الدولي : | 978-9953-494-57-9 |
| الناشـــر : | دار الأمير للثقافة والعلوم ش.م.م |





دار الأمير للثقافة والعلوم

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر - بيروت - لبنان



تلفاكس: 07 29 45 1 961+ ص.ب: 113/5551 الحمرا - بيروت - لبنان

Website: www.daralameer.com E-mail: daralameer@daralameer.com

# الفصل الأول

الفصل الأول:

# ما الذي حدث؟

# لعنة الشمس .. وطعام البشرية

في المستقبل القريب، تحدث أزمة لم تتوقعها البشرية، تُغير مجرى الحضارة والصورة المألوفة المعتادة للأرض، وتقضي على ركبها بطعنة قاتلة قضت على ذروتها وقمتها، وهل يكون ما بعد القمة إلا الهبوط، أزمة مفاجئة، وهل توقعت البشرية أزمة مفاجئة من قبل؟ هل توقع الناس حدثاً غيّر وجه التاريخ وصورة العالم من قبل؟ مَن مِن الناس توقع مثلاً إن قبائل "أنشان" قد تسيطر على المراكز الرئيسية في العالم القديم، من كان يظن مِن فلاسفة أثينا - وهم من حملة المنطق والحكمة آنذاك - بأن الإسكندر- ذلك الشاب المتهور والذي ولد وترعرع في أسرة مفككة و نزاع مع الوالد الملك - سوف يكون يوماً من الأيام قابضاً على العالم القديم، يجمع بين قرني أوروبا وآسيا، وليغير مجرى التاريخ في فترة قصيرة. وقس على ذلك بدو الجزيرة العربية أو بدو نصف آسيا. من توقع أحداث 1929م- وهي أحداث أزمة بورصة

نيويورك-؟ ، وكيف كانت مؤثرة بقوة عنيفة في أسهم البورصات العالمية، وسببت من بلاء وأزمات اجتماعية وسياسية فضلاً عن الاقتصادية، لتهيء بعد ذلك لوصول أحزاب فاشستية ونازية إلى مراكز الحكم في ألمانيا وايطاليا، لتشعل الحرب العالمية، وتسقط دول وتنهض دول، ويتغير العالم كله 180 درجة. بل إن حدث خلق الإنسان نفسه كان مفاجئاً للملائكة، حيث تعجبوا واستفهموا عنه وعن علة إرادة الرب بأن يكون هذا المخلوق خليفة الله في الأرض!!

حادثة 11 سبتمبر كانت سريعة وحدثت فجأة، وترتب على ذلك الحدث تغير حاد في سياسة الدولة التوتاليتارية المتمثلة في الولايات المتحدة الأمريكية. من كان من مجلس العموم البريطاني عندما كان يسن قوانين جائرة بحق سكان فرجينيا وأخواتها يتوقع أن تلك القرى الهمجية المتواضعة سوف تكون سيدة مجلس العموم نفسه في يوم من الأيام؟

البشر وتاريخهم، قصة عجيبة غريبة، واستقراء قوي يجعلنا نستنتج نظرية ومذهب، النظرية فيها ميزتان: الميزة الأولى أن الأحداث التي كانت تغير وجه الأرض أغلبها مفاجئة -غير متوقع- وسريع، والميزة الثانية: إنها كانت ولا تزال محل دراسة وذات علل مبهمة: لماذا حدثت الثورة الفرنسية مثلاً؟ ما هي أسباب الكساد العالمي الذي بدأ في بورصة

نيويورك 1929م ..الخ ، سريعة وغريبة؛ وعلى ما سبق يحق لنا أن نقول: أن الأحداث القادمة التي ستغير وجه العالم ستكون كذلك، عجيبة سريعة و غريبة، مبهمة الأسباب، وهذا الاستنتاج المذهبي المنطلق من الرؤية السابقة للحوادث التاريخية الفاصلة، وهو مذهب قائم على استقراء تاريخي واسع، واقعي ومنطقي وغير بعيد عن الحدوث.

بهذا المعنى قص "والكوت" العجوز الذي يريد لعب دور الحكيم - كما هو حال جميع العجائز عندما يجلسون مع من هم أصغر منهم سناً- القصةَ على أبنائه الشبان المنتشين بنشوة نصرٍ على لصوص حاولوا مهاجمة قريتهم المكونة من عدة بيوت خَرِبةٍ، بهدف الاستيلاء على صيدها وحلالها، وها هم يحتفلون بالنصر بإقامة وليمة عشاء متواضعة كنهها غزال تم صيده. قصةٌ يرويها عن أبيه عن أسلافه، طبعاً بتلاعب في الألفاظ وبتحريفها، ولكن المعنى هو المعنى لم يتغير بتغير الألفاظ، وقد أبقى الراوي العجوز أسماء الاعلام في الرواية، وهو لا يعرف أسماء الأعلام في القصة إلا لفظها وبعض الأخبار المتوارثة، فمن يكون الإسكندر؟ وما هي بورصة نيويورك؟، وحتى معنى عام 1929 ميلادياً قد لا يعرفه، هو مجرد ناقل أخبار عن أجداده عن أحدهم، الذي عاصر الأزمة البشرية الأخيرة، والذي كان أستاذاً أمريكياً للتاريخ في إحدى

جامعات النمسا، فحاله -أي والكوت-كحال معاصريه، الذين هم أجيال قدمت بعد الأزمة الأخيرة.

تستولي القصة على فضول أحد الشبان المستمعين يدعى "رايجن" فقد سمع من عجائز آخرين يروون تاريخ الناس أن أسلاف البشرية كانت آلهة تركب السحاب فتسافر إلى أي بقعة تريد في الأرض خلال ساعات معدودة، بل حتى إن أرادت هذه الآلهة البشرية السفرَ إلى القمر للسياحة والاستجمام لذهبت بلا مانع! وكان الإنسان في ذلك العصر المقدس يلم بكل ما يحدث في الغرب والشرق وهو جالس في البيت مشاهدا قطعة زجاجية مربعة أو مستطيلة. وقد سمع "رايجن" أكثر من ذلك ولكن كل ذلك كان محل شكٍ وريبة، واعتبرها الكثيرون من أبناء ذلك العصر القادم أساطيرَ الأولين، فيسأل "رايجن" العجوزَ "والكوت" -وهو جد صديقه المفضل "فيرون" من ناحية أمه-: هل فعلاً كان الناس القدماء يستطيعون الطيران وطي المسافات؟ قال العجوز: نعم وهم يركبون هذه الحدائد للطيران- وقد أشار العجوز إلى حطام سيارة "مرسيدس بنز"-، وهو لم يعرف أن الطائرة غير السيارة والسيارة غير الطائرة فلذلك أشار إلى المرسيدس وقال إنها تُركب للطيران، فهو -أي والكوت العجوز- لم يعاصر زمن الطائرات والسيارات، فكيف يميز؟!

ما الذي حدث يا جداه؟، سأل فيرون وهو يلتهم لحم الغزال.

أجاب العجوز: كانت الأرواح تسكن في الحبال والحديد!وهذه الحبال عندما تربط بها الأشياء فإنها تُحيى وتُنفذ أي مطلوب يريده الإنسان، وكذلك يُحيى الحديد بتلك الأرواح فتُحرِك المسكون وتُطيّر الهابط.

"رايجن" : وما صفات تلك الأرواح؟

العجوز: يقول الأسلاف: كانت ترعد وتبرق.

يقول العجوز: فلما غضبت الشمس العظيمة على بني البشر أمرت تلك الأرواح بمغادرة الحبال والحديد، فبات الإنسان رهين أرضه، انقطع عن أخيه في الغرب والشرق، وقلت الموارد، وتصارع البشر وتنازعوا على الطعام والشراب، فقامت حروب وحروب حتى وصلنا إلى هذه المرحلة.

انتهى كلام العجوز، وهو كلام مبهم ميتافيزيقي على المؤمن به، وخرافات يعتبرها المشكك لا فائدة منها، ولكي نسهل للقارئ ابن هذا الزمن الالكتروني والصناعي نستخدم مصطلحاتنا الحالية، فـ"والكوت" يقصد بالحبال: الأسلاك، وبالحدائد: المكائن، وبالأرواح: تلك القوى الكهربية والإلكترونية والميكانيكية في الأشياء، ولكن هذه المصطلحات كلها غير مفهومة عليه، وعلى بني زمنه، فلذلك استخدم مصطلحات

تناسب عقولهم وفهمهم، ونحن بدورنا نذكر لك -يا من تعيش في القرن الحادي والعشرين، في العصر المقدس!- ما يُذكر بمصطلحات عصرنا.

عندما وصلت الحضارة لقمتها التكنولوجية وذروتها الصناعية، صار الإنسان يعتمد على الكهرباء والميكانيك في كل شيء، في مشربه ومأكله وملبسه وفكره ولغته وتواصله واتصالاته وعلمه وفهمه، وصارت الحضارة تعتمد على الأسلاك والمكائن وما تقدمه للإنسان من صناعات وتكنولوجيا. فالتكنولوجيا عبارة عن مراحل، وكل مرحلة تحجب المرحلة السابقة عن الإنسان سابقتها، بمعنى: أن الإنسان بدء ينسج عن طريق إبرة لصناعة الملابس، فلكي يتعلم أبناء ذلك الجيل كيفية نسج اللباس فعليه أن يتعلم الخياطة بالإبرة، ثم نتقدم مرحلة مرحلة، حتى نصل إلى مرحلة الآلة، حيث أن أبناء الجيل الذي فيه تخيط لهم الآلة سيعرفون كيف يشغلون الآلة ولكنهم سينسون كيفية الخياطة بالإبرة، ثم تتطور الآلة ويتعلم الجيل الأحدث كيفية تشغيل الآلة الحديثة وينسى كيفية تشغيل الآلة القديمة، وهكذا كلما تطورنا نسينا التكنولوجية القديمة التي هي قريبة بالنسبة إلى الطبيعة، ومثله: السيارة، فبدء الإنسان بركوب الخيل، ثم جاءت السيارة لتحل محل الخيول، وتعلم الناس تشغيل السيارة وتناسوا ركوب الخيل والفروسية، ثم جاءت السيارة الحديثة ذات البصمة، فجهل الناس كيفية تشغيل السيارة القديمة

بالمفتاح، وهكذا في كل شيء، وكلما تقدم الإنسان ابتعد أكثر عن الطبيعة، فمن الصيد إلى الزراعة إلى الصناعة إلى الذرة والإلكترون، فأبناء الذرة لن يعرفوا الزراعة بدون الإلكترونيات، وأبناء الصناعة لا يعرفون الصيد من غير الصناعة المتطورة، فكلما ابتعد الإنسان وتطور صار في موقع اخطر، فتخيل وضع أبناء العصر الأخير المتطور والذي يعيش على تكنولوجية الصناعة والإلكترون والكهرباء والمكائن .. إذا تعطلت كل تلك التكنولوجية الحديثة، فهل سيعرفوا حينئذ كيف يخيطوا ملابسهم؟ أو يركبوا الخيل؟ أو يستخرجوا المياه العذبة؟ الجواب: لا، فهذه التكنولوجية القديمة قد حُجبت عنهم بمراحل ونسوها.

غضبت الشمس يوما، فأطلقت لسانها بسبة ولعنة! خذ أيها الإنسان المغرور عاصفة شمسية ترسل ذبذبات كهرومغناطيسية، لتكشف القناع عن الغباء البشري الذي كان مستوراً بتكنولوجيته المتقدمة، فإنه بعجلته وجشعه تناسى خطر العودة للطبيعة اضطراراً، فإنه بذلك لن يعود إلى مرحلة الصناعة في قرن الثامن عشر، ولا إلى الزراعة في 8000 ق.م تقريباً، بل سيرجع إلى أول مرحلة من مراحل الصيد والالتقاط، ببدائيته، لأنه لم يحتاط، ولم يلتفت إلى احتمال حدوث أزمات تدمر الكهرباء والمكائن، رغم دعوات علماء وفلاسفة وحكماء وأنبياء! بأن الاحتياط

مطلوب والاحتمال وارد، ولكن بأنانيته لم يلتفت، كل إنسان كان هدفه ترس جيبه، وبسرعة دون احتياط ودراسة.

أرسلت الشمس عاصفتها، فتعطلت الأقمار الصناعية، كما حذرنا علماء فنلندا عام 2003م، وتعطلت معها أجهزة الاتصالات بين الدول والناس، فازداد الشك بينهم واحتمالية الضرب المسبق، وتخبطت نظم الملاحة. ومزقت الذبذبات الكهرومغناطيسية وعطلت البث الإذاعي والتلفزيوني كما فعلت في كندا عام 1997م، وتفاعلت الجسيمات الشمسية مع المجال المغناطيسي للأرض، لتسبب موجه مغناطيسية وشحنات كهربية أوقفت الكهرباء، لتطفئ المولدات وتنطفئ المدن الواحدة تلو الأخرى، توقفت المصانع، والبنوك والمصارف، والبورصات، والمطارات .. وكل شيء. صُدم الإنسان وأحس بانخداعه الذي كان سبب غروره وتوهمه بأن ساد الطبيعة والكون، وكأن البشر براغيث على ظهر أسد نائم، يتباهون بأنهم أسياد الليث اللاهي عنهم، وما أن نفض الليث نفضة لتتطاير البراغيث من على ظهره، وهكذا الطبيعة بلسعة شمسية واحدة، يتمت البشر وضيعتهم ضياعاً.

توقف كل شيء، واختل نظام النقد، فلا الفيزا والماستر وأمريكان اكسبرس ستكون ذات قيمة ولا حتى الأوراق الخضراء (النقود)، وتوقفت محركات الفراري والبورشه والكورفيت وكل شيء يتغذى

على الكهرباء والميكانيك، وضاعت صفة الغنى، وبات الناس كلهم فقراء، وبقيت بعض المتفجرات والأسلحة، لتنفذ على ظهور البشرية في صراعهم على الموارد النادرة وانتقامهم وحقدهم على بعضٍ، وصارت القيمة كلها في: الماء والطعام والحيوانات والأخشاب .. ، فبدأ الناس كعادتهم بالصراع على تلك الموارد الطبيعية، فلا المصانع ولا الفلاتر تعمل لتعطيهم ماءاً عذباً بصورة سهلة و وافرة، ولا المطاعم تطعم الناس كذلك، بل إن المياه العذبة صارت شحيحة، وحدث ما توقعته منظمة الأمم المتحدة في مارس 2007م بأن في المستقبل القريب سيواجه كل اثنين من ثلاثة أشخاص العطشَ، ولم تعلم الأمم المتحدة أن ثالث الثلاثة الذي شرب الماء سيموت من التلوث البيئي، فصارت المياه العذبة يصعب الحصول عليها، والذي يصعب الحصول عليه دائماً يكون غاليَ الثمن، ومحط جشع الإنسان، فتم قتل ثاني الثلاثة في صراعه مع الأول، وهكذا عندما جاعت البشرية إلى هذه الدرجة، سدت جوعها وعطشها بأكل نفسها وشرب دم أخيها، لتشفي غليل جشعها على تلك الموارد، فبدأت الحروب مباشرة، فتمّ فناء ثلث العالم ومعه فنيت المعدات العسكرية، ويرجع الناس لاستخدام العصي و السيوف المصنوعة من تبريد الحديد، وأثيرت مسألة الأمن القومي لكل قرية وعصابة، الأمن الذي يعني قتل الآخر وإلغاءه، فذهب ثلث الناس الثاني بذلك، كما

تنبأت النبوءات بأنه سيأتي عصر يذهب فيه ثلثي الناس. وتكوّنت مدن وقرى منعزلة، كلما أصاب أحدها قحطٌ هاجر سكانها إلى مدينة أخرى وهاجموها.

ذهبت مدن عظيمة وعريقة، ودُمرت - واختر أي سبب تريده فكلها منطقية وقريبة الحدوث-، وتأسست مدن حجرية أو بمعنى علمي أدق، قرى وسط خرائب، كل قرية صارت مهددة من قطاع طرق، أو قرية أخرى جائعة، وهكذا عمت الفوضى الدنيا لأجيال وأجيال، فقل البشر وقلت المدن، وبدأت تموت الواحدة تلو الأخرى، بسبب قلة الموارد الأساسية، فالقاعدة الأساسية في هرم ماسلو غير متحققة، وإن تحققت فان القاعدة الثانية وهي الشعور بالأمن لا يكمن إلا في القضاء على أقرب الأعداء المحتملين، الذين قد يشكلون التهديد الحقيقي الوحيد لبقاء القرية على قيد الحياة، وهم البشر!

جاءت البشرية، بعد أن لعنتها "ميثرا" إله الشمس، وهجرتها الأرواح المقدسة التي تحيي الحديد، ولم تكن لعنتها فقط في عاصفة شمسية عظيمة عبرت خط الخطر لمرة، بل وفاجأت الناس بحبس دفئها عنهم،بزيادة نشاطاتها لتؤدي بذلك إلى زيادة الاحتباس الحراري وإيصاله إلى مداه، وقالت بنبرة غاضبة: انتهى عصر 120 ألف سنة الدافئة، بعد أن كانت لطيفة في بث إشارات أحصاها العلماء القدامى -

علماء قرن العشرين- وتوقعوا قدوم العصر الجليدي، ولكنهم لم يلتفتوا إلى الإشارات التي تقول بأنه رغم أن العصر الجليدى السابق ظهر بصورة تدريجية لكن هذا لم يمنع حدوث تغيرات مناخية مفاجئة مثل التغيير السريع في درجات الحرارة بمعدل يتراوح بين عشر درجات وخمس عشرة درجة خلال عشرات السنين، لم يتوقعوا التغيير السريع.

فغطت الثلوج أوروبا وأمريكا الشمالية كلها، وآسيا أيضاً باستثناء جنوب شرق آسيا والهند وجنوب إيران والشرق الأوسط، وبقيت أفريقيا - كما كانت مهد البشرية والموطن الأمثل في العصور الجليدية السابقة- ، وكذلك أمريكا اللاتينية، فهاجر من بقى من الناس إلى تلك المناطق الدافئة نسبيا، و تصارعوا مع المتصارعين، فشرق الأوسط تلك المنطقة الملعونة كعادتها لم تقف الصراعات والحروب فيها فقضت على الناس هناك، وبقي منهم القليل. وأفريقيا كما الحال في وقتنا هذا، قضت القبائل على نفسها بنفسها، ولم تكن أمريكا اللاتينية بمنأى من تلك الصراعات، إنما أصابها حدث قضى على الناس هناك، وصار مصيرهم مجهولا لبعدهم عن القارات القديمة المتصلة وفصل البحر الأطلسي عنها.كل العالم كان يحارب بعصبية وجشع وجوع وعطش .. كعادته.

كانت عصابة "رايجن" مخلوطة الأصل والنسب بيولوجيا، ولكن من روايات المخضرمين منهم مثل العجوز"والكوت"، قد يرجعون نسباً

إلى طبقة مثقفة كانت تدرس في جامعة فيينا وتتكلم الإنجليزية، لأن العصابة تتكلم الإنجليزية أكثر من الألمانية، من الممكن أن يكونوا طلبة وزائرين وأساتذة للجامعة النمساوية، لا نعلم، كل ما نعرفه أنهم أصحاب أنساب مخلوطة اتفقوا على اللغة الإنجليزية مع وجود مفردات ألمانية، ولعلهم مع أُسرهم كانوا يتكلمون الإنجليزية ومع أهل البلاد (النمسا) اللغة الألمانية كحالة طبيعية، ولكن بعد الأزمات بدؤوا في مهاجرة النمسا، فكانت اللغة الدولية هي الإنجليزية مما ساعد على استمساكهم أكثر بلغة الأم، وكأن القدر تدخل في ذلك لتحقيق هدف سامي من احتفاظهم بالإنجليزية و زيارتهم للنمسا، أو تعلمهم الإنجليزية في البداية كضرورة للدراسة والإلمام بمصادرها العلمية أو تظاهراً بالثقافة، ثم مارسوا اللغة اضطراراً للتفاهم مع الشعوب الأجنبية فيما بعد والتي احتفظت بمعرفة للغة الدولية.

هاجرت هذه القبيلة الإنجليزية بعد غزو الجليد أوروبا إلى جنوب تركيا، و تكيفت مع الوضع لتتحول إلى عصابة تلجأ إلى غزو القرى، بعد أن رفضت هذه القرى استقبالهم، وعاشت عصابة "والكوت" في جبال وكهوف، ثم استفادت من إحدى غزواتها في تعلم نصب الخيام، فصارت قبيلة بدوية! باحثة عن منطقة دافئة، يتوفر فيها الماء الصحي

والطعام الوفير والخشب، وهكذا كانت تبحث كما هي باقي قبائل البشر عن الفردوس المفقود، الذي يتوفر فيه كل ما يصبون إليه.

ومرت القبيلة بفلسطين المقدسة، ولكنها لم تكن مقدسة لديها وقت أثناء المرور، ولا هي مملكة الفردوس المعنية، لعل ذلك من جهلها وفقد المعلومات القديمة عن تلك المنطقة، ولعل المنطقة لم تكن بذات الأهمية التي كانت عهد الحروب الصليبية، فقد كان ذلك في عصر الإقطاع والبحث عن الشرعية الملكية وتضليل الرأي العام، وهذا كله من مميزات القرون الوسطى في أوروبا، أما نحن ففي العصر الحجري وعصر الصقيع، ما تهتم به القبيلة المرتحلة هو نفس اهتمام قبائل الكرومانيون عندما طردت النياترداليين من أريحا قبل آلاف السنين، لم يكن هيكل النبي سليمان ولا قبة الصخرة.

وتوارث أبناء القبيلة الانجليزية المهاجرة جيلاً بعد جيل علوم الصيد وقطع الطريق، وتوارثت أيضاً قصة الجنة الموعودة، الدافئة، وكانت الجنة كما عند العديد منهم قابعة في الجنوب، وقد واصلت القبيلة رحلتها حتى تعرضت لصدٍ من قبيلة أخرى على أرض سيناء، وحلت هزيمة منكرة بالقبيلة الانجليزية، فتراجعت إلى أرض الجزيرة ولاحقتها القبيلة المنتصرة، طمعاً في الحصول على أكبر قدر مما تستطيعه من القبيلة المهزومة، وهربت القبيلة الإنجليزية إلى الجنوب،

حتى انفكت الملاحقة، بعد عدة غزوات أو ملل من القبيلة المنتصرة. وواصلت قبيلتنا المسير نحو الجنوب ولكن هذه المرة باتجاه الجزيرة العربية، وتعرضت القبيلة للصعاب حتى وصلت إلى اليمن، وهناك ملت الرحلة، فأسست لها قرية بعيدة نائية، بعد قرنين من الترحال، لتسكنها وهي تأمل ظهور المنتظر الذي سيوصلها إلى الجنة الموعودة.

حتى أتى جيل "والكوت" و ازدحمت القرية وباتت الموارد لا تكفي سكان القرية، ولجشع الإنسان وقانون الطبيعة الذي يُبقي الأقوى والذي يتحرك، فصارت تلك الموارد النادرة بيد أقلية، ادعت بأنها الأحقُّ لكونها الحاكمة. ولأن الحكم يستلزم المصاريف، والمصاريف ليست متمثله في النقود الورقية أو المعدنية، فلم تعد هذه الأمور بذات قيمة، إنما المصاريف صارت في الموارد الأساسية: الطعام، الشراب، الملابس، مستلزمات البناء هذه كلها أصبحت حقوق للشعب، وهو معاشاته. والحاكم وظيفته أن يهيئ كل هذه الأمور للشعب قبل أن يهيئها لنفسه، ولكن ماحدث قبلاً وما يحدث الآن وما سيحدث في عهد آل والكوت، هو أن يستحوذ الحاكم على كل تلك الموارد والحاجات، له ولذوي قرابته، ولا يهمه في غير أهله إلا الرأي والسمعة، فهو إن أعطى فإنما يعطي لأجل السمعة والهيبة، ولكسب الرأي العام، ليحفظ مكانته ومنصبه. وعندما يكون في وضع مستغني عن الشعب ورأيه فإنه يضرب

مصلحة الشعب والناس عرض الحائط، وهذا ما نراه في أغلبية الحكام عندما يكون حاكماً إلهياً! أو صاحب قوة عسكرية تحميه من حجارة الناس الغاضبة.

فتكونت طبقة تستولي على الموارد والخيرات، وطبقة أخرى تنتظر عطايا الأقوياء، و قسم من الضعفاء آمن في البداية بمقولات الأقوياء وحججهم، فالأقوياء يحتاجون إلى طعام أكثر ليبنوا أجسادهم التي يستخدمونها في حماية الضعفاء من هجمات قطاع الطرق والقبائل الأخرى الغازية؟ وهجمات القرى الأخرى، والحيوانات..الخ ولكن مع الوقت بدأ الأقوياء بخلق هالة قدسية حول أنفسهم، وأخذوا يستولون على كل شيء، فباتوا يستلذون بطعم التفاح والتوت بينما الناس يموتون جوعاً، و عز على القوي أن يتنازل عما يستملكه بجهده للضعيف وأطلق العنان لمقولة جعلها وحياً من السماء، وهي: أن القوي يبقى والضعيف يجب أن يموت، وهكذا فقد الفقراء حتى القاعدة الأولية في هرم "ماسلو"، فالأمن لا قيمة له إن لم تتحقق له الحاجات الفسيولوجية الملزمة لبقائه حياً، وهذه طبيعة فطرية في الكائنات الحية كلها، فإن وجد الإنسان طعاماً وهو مقبل على الموت، وكان الطعام بين يدي الأسد فان ذلك الإنسان سيأتي ويواجه الأسد ليأخذ منه الأكل، فهو ميت في حال السكون وعدم التحرك، ولكن في حركته أملٌ في العيش، وموته سيكون

احتمالاً من اثنين، وخيار أن يكون الموت محتملاً ولو بنسبة 1٪ خيرٌ من أن يكون الموت مؤكداً، وهكذا اختار الضعفاء والطبقة الفقيرة والتي بدأت تموت خيارَ مقاومة الأقوياء، فلعلها تهزمهم أو ترغمهم على التنازل عن شيء من خيراتهم، والعمل مبرر عقلياً و ممدوح فطرياً، فلو لم يختر الإغريق مقاومة الأسد الإيراني في ماراثون وبلاتيه واقتناعهم بأن الفوز محتملٌ ولو كان ضئيلاً لما تحررت وتسفسطت اليونان وتسقرطت، وقدمت لنا المسائل الفلسفية والتي هي أم العلوم وأبوها. هذه الفطرة الإنسانية التي حمت أرحام الامهات، الحاملة أجنة المفكرين والمبدعين، ملوكَ العلم والفن والأخلاق، وحافظت على فرصة ولادتهم. من تلك الفئات المظلومة والتي قاومت وُلد مارتن لوثر ومانديلا ولوثر كنج وغيرهم كثير، ليس بالضرورة نتفق معهم بالأفكار والسياسات، ولكنهم حققوا ما كان يجب أن يتحقق، كحقوق الـ13 ولاية في أمريكا الذين تعرضوا لعسف البرلمان البريطاني في القرن الثامن عشر، فقامت الثورة الأمريكية وقامت بعدها الولايات المتحدة الأمريكية، ألا ما أعظم هذه المقاومة ونتيجتها، هذه المقاومة هي التي أسقطت شاه إيران، و هي التي أقامت اليابان الحديثة، وهي مولدة الثورة الفرنسية. انظر كيف تُولد هذه الفطرة البسيطة الضئيلة دولاً عظمى وتؤسس لأعمال جبارة.

في الحقيقة أن أهم ما في المقاومة هو الشرعية، فهي التي تخلق الراحة النفسية وسعادة الميت، وهذه موضوع الفطرة، فالإنسان يعشق أن يرى عمله مبرراً، وهو مصقول بذلك بفطرته وعقله، فأن يبقى ساكناً ويؤكدُ موته فهذا عمل ليس مبرراً. أما تحركه ففيه كل التبرير، وإن كانت النتيجة سلبية فإنه سيكون شهيداً، شهيد الحق، ولكن إن عاش صدفة واتفاقاً بسكونه فإنه سيكون جباناً موصوماً بالعار طيلة حياته، لكن الميت الذي تحرك فانه شريف طيلة موته!! رغم أن سبب الحركة هو طلب العيش!! انظر إلى هذه اللوحة العجيبة. فمن منا يعرف "كراسوس"؟بلا شك الذين يعرفونه أقل بكثير ممن عرفوا "سبارتاكوس"، والعالم يسمع كثيراً بالحسين ويشاهد الدماء التي تسيل من أجله والصدور التي تُلطم له والملايين يحجون إلى مرقده، في حين لا يكاد يعرف العالم من هو "عمرو بن سعد" و"شمر" و "يزيد بن معاوية" إلا القليل.

ليس بالضرورة أن تكون المقاومة عنيفة، بل هناك مقاومة سلمية، هناك مقاومة فكر، مقاومة وضع ظالم..الخ، نقصد بالمقاومة هو التحرك لتغيير ما هو ظلم، و الذي نتحدث عنه هنا هي المقاومة المشروعة المبررة التي تهدف لهدف نبيل، وهو إطعام الفقراء وانتزاع الحقوق من الأقوياء الظالمين.

وهكذا تكلمت الفطرة، وبهذه الحجة -إما النصر أو الشهادة- قادت الثورة على الأقوياء وكان "والكوت" من الثائرين، ولكن هذه المقاومة كان مصيرها الشهادة، أو الفشل بالمعنى الواقعي، فقضي على عدد كبير من المقاومين، وهرب من تبقى، ولكن المفاجئ هو أن المنتصرين الذين انتصروا وخرجوا متعبين من الحرب، هوجموا من قبل قبيلة أخرى أفنتهم عن بكرة أبيهم واستولى المنتصرون الجدد على خيراتهم، واستعبدوا الباقين.

أما آل "والكوت" فهربوا عابرين مضيق باب المندب، ليصلوا إلى القارة الأفريقية، مقررين بعد الهون والجهد العظيم أن يبحثوا عن الجنة المفقودة، فخيال الفَقْد أولد لهم كل ما يريدونه في تلك الجنة، وهذه أيضا طبيعة بشرية، ممكن أن نلقبه بالأمل المعوّض، فكل ما يفتقده الإنسان خصوصا بالظلم -حسب رؤياه- يحس في قرارة نفسه أن سيتم تعويضه، لا بد أن يتم تعويضه، و الإنسان مجبور بالأمل، ودائما يتصور الخير الذي سيتحقق بصورة مثالية وكما يشتهي، ولكنه حينما يلمس الواقع فإن الصورة الخيالة الواسعة تبدأ تضيق و ينصدم صاحبها، ولكنه سيتقبل -على ما أظن-، لأن هذا خير مما سبق، وسيعيش على هذا الخير الهابط! لكنه سيمل مع الوقت ويتخيل أنه بالإمكان تحقيق أفضل من هذا، فيخلق له جنة أخرى ويتأملها، ثم يتحرك لها مصدقا بأنها عرض

السماوات والأرض، وفيها الألوان الزاهية والنسيم العطر والهدوء المفرح، ثم يصل لهذه الجنة ويحدث له ما حدث، فكم من جيشٍ سار محاربا وهو في قمة حماسه وأمله بالحياة الهانئة والجنة الحلوة، ولكنه ينصدم بعد الانتصار أنه ليس هناك فرقا!! قارن حماسة الجندي النابليوني في بداية هيجانه الأوربي وانتصاره في "استرلتين" و إحباطه ويأسه وهو يحتضن أخاه أو صديقه المتثلج بثلوج روسيا فيما بعد، قارن بعض أبناء الشعب الإيراني الذين تصوروا أن إيران ستكون من كبريات الدول في مستوى الدخل الفردي بعد الثورة الإسلامية، قارنهم قبيل الثورة وبعدها، وغيرها كثير من الشعوب والبشر الذي تحمسوا لفكرة ظنوا أنها ستخلق لهم جنة ولكنهم عندما يسكنون تلك الجنة يرونها جحيماً لأنها لم تكن كما تصوروها في خيالهم فيعوضوا بخيال جديد وأمل وجنة أخرى وهكذا، وقد يقال أنه هذه الدواليك أغضبت الفطرة الإنسانية، فأطلقت دعوى مضطرة لتشفي غليل الطمع الإنساني وجشعه، فخلقت له الجنة العظمى وهي ما بعد الممات، جنة الآخرة التي ستشبه الحياة ما قبل الجنة الأولى!! وستكون الحياة تلك هي الجنة الحقيقية، كما هي جنة آدم وحواء.

تحرك "آل والكوت" بعد أن صدموا من هول الجنة الأولى، في اليمن، ليقرروا أن الجنة هي غيرها، وكانوا يسمعون كثيراً عن مدينة

مزدهرة غنية الموارد، يعيش أهلها بسعادة ورضا، فجلعوا هذه المدينة هي الجنة الموعودة، وهذا ما زاد حماسهم للسير الكبير، ورغبتهم الشديدة في تغيير الحال الزفت، وفطرتهم!

عبر "آل والكوت" البحر الأحمر، أو خليج عدن، ووصلوا لشاطئ أفريقيا ليجدوا هناك قبيلة مسالمة وضعيفة كانت هاربة هي الأخرى من ويلات الإنسان، أو لعلها بقايا من ذراري قبائل الصومال القديمة، ولضعف حال تلك القبائل ويأسها، لم تتحرك لدرء الغرباء وقتالهم، إنما اكتفوا بالصدمة والخوف المتلوح بالسكوت، فتقدم "والكوت" وأفهموا القبيلة بلغة الإشارة أنهم عابرون ليس إلا، وأنهم جرحى وتعابى ومرضى، لا يريدون قتالاً أو شيئاً آخر، وتبدو على القبيلتان حالات اليأس وملل الحرب والقتال، وكل منهما في قلبه الرجاء والأمل من أن القبيلة الأخرى لا تفعل أمراً سيئاً، ولما بدى على آل "والكوت" -العصابة الهاربة التي لا يتعدى عددها المائة- المسالمة تباشرت القبيلة الصومالية وأبدت فرحتها وأنها كذلك لا تريد إلا السلم، وعرضت على عصابة "والكوت" الطعام والأكل و الإقامة معهم، لعل الأجسام الانجلوسكسونية أثارت في الصوماليين رغبة في الانتفاع منهم كعسكر يستفيدون منهم بطريقة غير مباشرة، بحيث تربط مصالح عصابة "والكوت" بمصالح أمن القبيلة الصومالية، ويتبادل الطرفان المصلحة، فأقامت عصابة "والكوت"

عند الصوماليين، ونصل الآن إلى عهد "رايجن" ، حيث حدث هذا بعد سنوات، وقد شاب "والكوت" ، و لم تكن العصابة أو القبيلة الصومالية تزداد عدداً، لأن الذين يتعرضون للموت من القبيلة الصومالية كان أكثر من المتولدين، ولجمال آل "والكوت" بالنسبة لأبناء القبيلة الصومالية، طغى المتولدين الانجليز -لغةً- واستمرت اللغة الانجليزية هي الغالبة، وهكذا ورث الانجليز القرية البدائية، ولم يزد عددهم عن المئتين.

ثم حل القحط فيهم، واستمروا في الترحال، وتصادموا مع قطاع طرق ولصوص، و يظهر أنهم يسيرون غرباً مع هبوط قليل، لأنهم وصلوا للنهاية إلى شاطئ نهر النيل أو فرع من فروعه في أثيوبيا، وهنا كان "رايجن" شاباً يافعاً، وهنا قص العجوز "والكوت" القصصَ والذكريات والأساطير القديمة.

# الفصل الثاني

## الفصل الثاني:

# رحلة الصيد

وعلى النهر العظيم أقام "الوالكوتيين" خيمهم وأسسوا قريتهم المتواضعة، وانتشرت مجاميع جمع التوت النسائية وكتائب الصيد الرجالية، وكانت عناوين حياتهم الرئيسية تتمثل: البحث عن الطعام، وجلب الخشب من الغابة. و قد بنوا سورهم الخشبي، وأكواخهم الجميلة.

لم يعد الصيد هواية في هذه الفترة، بل أصبح مثلما كان في العصر الحجري الحديث، ضرورة لأجل البقاء، فتقنيات الزراعة كانت صعبة وشبه مجهولة عن العصابة "الوالكوتية" ، فهم علمياًبدو ورحالة ، يعتمدون على الالتقاط والصيد، فكانت القبيلة الانجليزية - منذ رحيلها من النمسا هرباً من المشانق البيضاء (الثلج) وصقيعها، وهروباً من العصابات الصحراوية "الأمورية" حتى الأزمة السياسية في قريتهم الأولى وهبوطهم على القبيلة الصومالية وصولاً إلى ضفاف النهر- يعتمدون على

غيرهم، من الناس أو الطبيعة، فكانوا يغزون منفردين(يسرقون)، ولم نقل أنهم كانوا شعب الله المختار، أو الأمة المعصومة عن الخطأ، بل هم كعادة البشرية يستغلون أي ضعف يرونه أو يجدونه في طريقهم ورحلتهم الطويلة، ولكن اتفق أنهم كانوا هم الضعاف في الأغلب، فلذا كانوا يهربون دوماً، ولم تكن غزواتهم منظمة وجماعية، بل مغامرات فردية كنهها الأنانية والتباهي المختلط بالجوع المميت والرغبة الفردية في البقاء، وحصل أن البقاء معتمد على الإجتماع، فلذا بقوا مع بعضهم البعض، وبررت الفطرة هذه العملية (البقاء مجموعة لما فيها مصلحة) بإيجاد المودة والحب بين أفراد القبيلة، بحجة أنهم أبناء الأب الواحد، واللغة الواحدة ، والعادات الواحدة، ولكنها في الحقيقة: المصلحة الواحدة.

وهكذا تعلموا أن يبقوا متوحدين عن طريق تعلم الخطأ، فمن ذهب للمغامرة الفردية لم يعد، وإن عاد إما خائباً أو مجروحاً، و نادراً ما ينجحالفرد دون أن يخسر شيئاً. فتضيقت دائرة المغامرة، وأصبحت بدل غزو الناس غزو الطبيعة القريبة المعروفة، فبات "الوالكوتي" وكل من عاش تلك الظروف يخاف من المجهول، وفضلَ الإنسان أن يصطاد الأرانب و المواشي وغير ذلك من الحيوانات، و يجمع ما تقدم له الطبيعة كرما منها كعادتها بطول التاريخ من فاكهة وخضار .. الخ

"رايجن" و كل من يعبر مرحلة الشباب كان طموحاً، يريد تغيير كل شيء، ويؤمن بأنه قادر على تمزيق خرافة العجز في الإنسان، وأن المستحيل لا شيء، وأحبأن يكون الأفضل بين أقرانه، وكانت الفضيلة في ذلك الوقت - وفي أي وقت- متلخصة في شيئين: الشجاعة وغنائم تلك الشجاعة، ولعل تقديس الشجاعة منبثقٌ من الغنيمة التي تدرها الشجاعة، أي لكون الشجاعة وسيلة للمادة وإشباع البطن، فكل من أتى بطريده أعظم كان بنظر "الوالكوتيين" أشجع وأشرف، وكان محط أنظار الجميلات، وسيكون مقدماً اجتماعياً ويُنظر إليه نظرة هيبة و وقار، وهل توجد لذة لدى الرجل أكثر من الهيبة والوقار؟

وهكذا رغب "رايجن" برحلة صيد مميزة وأقنع بعض أصحابه بالمغامرة، وأعدوا العدة لرحلة الصيد، وآذن لهم أولي الأمر، وهكذا قاد "رايجن" مجموعته الشابة المتكونة من الخمسة: "فيرون" ،"لي" ،"بامير"، "اوبستير" و"بشير" والأخير من ذرية القبيلة الصومالية لكن الأم انجليزية بعد توديع الأهل وتوصيات الخبراء وطقوس السحرة.

تسير جماعة الصيد، وخلفها قريتهم، وكلما صغر حجم القرية في نظرهم، كبر حجم الشوق في قلوبهم لأهلهم وذويهم، و كلما أبعدتهم المسافة قربتهم الذكريات، وما أن خيم الليل الأول بدؤوا يتهامسون بين بعضهم ويتسامرون بقصص الطفولة، بعد أن أشعلوا النار وسطهم،

وأخرج كل منهم عشاءه الخاص، ولم يكن غير نوع واحد من الفاكهة، عشاء متواضع لكنه جميل وصحي.

قال "رايجن" لـ "بشير" : هل فعلاً كان أجدادك يقتلون الأسود بأيديهم؟

"فيرون" ساخراً: نعم وكانوا يقتلون وحوش البحر وتنين النهر.

"رايجن" مبتسماً : "فيرون" اسكت، لنسمع حكايات تشجعنا على الغابة. أم تريد حصر الروايات لتتحدث فقط عن نسائك وجميلاتك.

"فيرون" بشدة فكاهية: نعم.

"بامير" مطلقاً أصوات ذئب: هل أنت خائف "رايجن" . أين القائد صاحب فكرة الصيد النادر والذي تباهى فيها؟!

"رايجن": إنما القصص لتشجيعكم أنتم الجبناء لا أنا. يضحكون.

"بشير" متقبلاً سخريتهم بصدر رحب وابتسامة: نعم كانوا كذلك.

"رايجن" : بيدهم؟ أم مع أداة؟

"بشير" مستسلماً لروايات أهله: نعم بيدهم.

"فيرون" : حسناً! في عصر قبل لعنة الشمس المدعاة؟

"بشير" : لا بعد اللعنة.

"فيرون" : وهل أهلك يؤمنون بحدث اللعنة أيضاً؟!

"بشير": وهل توجد أمة لا تؤمن بها.

"لي": ألا تؤمن بها يا "فيرون".

ينزل رأسه "فيرون" ثم يقول: لا أعلم، لم أشاهد شيئاً مما قالوه.

"اوبستير" يميلإلى صف "فيرون" : وهل تصدقون أن حديداً يطير وحبلاً يحيي الموتى؟؟!!

هنا يخيم السكوت برهة، لا بسبب قوة حجة "اوبستير"، بل لقوة حجة النوم، ولكن تم اختيار "لي" و "بشير" للحراسة في النوبة الأولى قبل طغيان النوم على أعين الجماعة، ولكن "رايجن" أطال مقاومته لسلطة النوم، متسلحاً بكتائب التفكير، فقد فكر بالأساطير، هل فعلاً يستطيع الحديد الطيران؟ ويحتوي على أرواح؟ هل هناك أرواح بالفعل؟ ماذ لو كان كل ذلك مجرد هراء؟ ولكن ما الهدف من روايتها باستمرار؟ ولماذا يتعصب البعض لأجلها؟

"رايجن" يفكر وهو ينظر إلى النجوم، وحركة الشهب، متخيلاً أن الشهَب التي تطير في السماوات البعيدة هي الأرواح المعنية، احتمال وارد وجميل، ولكن يبقى الشك ولو مستتراً وخجولاً في قلب العديد من المؤمنين، فأغلب المؤمنين على مرّ التاريخ لم يؤمنوا بما آمنوا به إلا تعصباً وتقليداً لآبائهم وأسلافهم، وهم بذلك يعبدون أسلافهم لا "التاو" و"المسيح" والله، يطيعون جماعتهم لا "كونفوشيوس" و"بوذا" والنبي محمد، فهؤلاء المؤمنين عندما تقدح بشخص تلك المعبودات أو

الشخصيات المقدسة أو أفكارها أقاموا القيامة وقتلوا من قتلوا وحاربوا من حاربوا، ولكن هؤلاء المقاتلين والمجاهدين أينهم وتطبيق تلك أفكار تلك المعبودات؟! لا يجوز الزنا (فكرة) ويرجمون الزانين ولا تجوز السرقة (فكرة) ويقطعون أيدي السارقين ولكنّ الجلادين أنفسهم تراهم يزنون ويسرقون ..الخ يدافعون عن الفكرة بتعصب ويقتلون من يقف ضد تلك الأفكار، ولكنهم من حيث التطبيق لا يطبقون على أنفسهم ولا على أقربائهم، ويعذرونهم ويتغاضون عنهم، فهم الأبرار الطاهرين. يلقلق بلسانه: الحسد حرام ..الحسد حرام. ومن يرى غير مذهبي يجب أن يُعدم شخصه أو شخصيته. ولكنه يحسد!

ألا ليت هؤلاء المتناقضين لا يطبقون الفكرة بتاتاً خيراً من أن يطبقوا جزءاً منها، لأن الجزء سيذهب لغيره، أما هو فسيستمر في الذنب دون رادع.

هذا مذهب التعصب حول الأفكار المقدسة، لماذا؟ الإجابة تكمن في التالي: أسلافهم آمنوا بتلك الأفكار وقدسوا الشخصيات، فإن قلنا بأن تلك الأفكار مغلوطة أغلطنا الأسلاف وأنزلناهم من مقامهم العالي، وإن ناقشنا تلك الشخصيات كذلك نفس النتيجة، يكون القدح بما آمن به الأسلاف ودافعوا عنه، ويكون القدح في مقامهم العالي، والقدح بالنسبة لمن ينتمي لتلك الأسلاف يعني القدح فيهم أيضاً، وهنا بيت القصيد، لا

أن تلك الأفكار منطقية أو جميلة أو فطرية، لا أبداً، بل لأنّ أسلافهم قالوا بتلك الأفكار، والدليل: أولاً أنهم لا يطبقون تلك الأفكار، وثانياً: عند مناقشتهم لا يتحججون إلا بما ردده الأسلاف وإن صارت تلك الحجج قديمة، وعندما تتعرضهم حجة مضادة بليغة لا يقولوا: نعم الاعتراض جيد وسندرسه، ولعلنا كنا مخطئين، بل أوتوماتيكيا سيقولون: أنت مخطئ لا محالة ولكنني أجهل الإجابة!

تأبى نفس "رايجن" من أن ينال من الأسلاف وأفكارهم، ولكن لا يعنيه ولا يهمه إن كان يطبقها أو أن يمتثل ويقتدي بالأبطال والشخصيات المقدسة، فإنه سيتحجج بأنه غير قادر بأن يكون مثل "أشوكا" أو "ماوتي" أو "حمزة بن عبد المطلب"، يالها من سخرية وتفاهة لهذه الحجج الأنانية والعصبية، كل همه أن تكون شخصياته المقدسة أفضل الناس وأن يكون دين الأسلاف أنبل دين وهو الحق، ولكنه حينما تقول له طبق دعواتهم تعذر وقال: أنا مختلف عنهم هم كذا وكذا وأنا لست كذلك، وكأنه يقول: أنا مقدس وعالي المقام بعلو مقام أسلافي، ومعذور في الذنوب والخطايا لأنّي لست كأجدادي وأسلافي، ولكني سأبقى شريفاً بشرف أسلافي مهما كان، ومن يرفض ذلك فإنّه يستحق القتل والقطع والنفي والحطّ من مقامه!!

فهو لا تهمه الفكرة من حيث روحها وهدفها، بل بما هي فكرة قد آمن بها أسلافه، فلذا كانت عبادةُ الأسلاف قديمةً ومتأصلة في البشرية، وإن اختلفت صورها.

وهكذا كان شك "رايجن" مستتراً وخجولاً وداخلياً، هل طار الحديد يوماً؟ من غير رفرفة جناح، وهل كانت الأسلاك حية من غير قلب ودم؟ قد تكون هذه السلسلة من الأفكار لا نتيجة مغيرة بالنسبة له، لأن بالنهاية سيؤمن "رايجن" أو يتظاهر بالإيمان، لأنه أحب أسلافه، وأحب نفسه. بل كانت نتيجة تفكيره مضرة لأنها منعته من النوم حتى جاءت نوبته في الحراسة، فقام ليحل هو و "فيرون" مكان "بشير" و "لي"، فلم يركز بالحراسة وضعفت قواه المنبهة عند وجود الخطر، فغلبه النعاس وهو جالس على صخرة بوضعية الحراسة و"فيرون" بعيد عنه يحرس الجهة الأخرى فلم يدرِ عن نومه، حتى إنتهت نوبة حارسته، فأيقظوه ضاحكين ساخرين و تبادلوا الأماكن.

وتمر الليالي والأيام ويبتعدون عن موطنهم (المتحرك) ويتعمقون في الغابة أكثر، وهم في أتم الاستعداد لملاقاة أي طريدة مفاجئة.

وتظهر لهم الغزلان، ويصطادون منها ما استطاعوا اصطياده بمهارة جيدة نسبياً تعلموها ممن سبقوهم في الصيد، وهكذا كانت رحلتهم غانمة لا سوء فيها، حتى الآن، وعند انتهاء صيدهم و قرارهم للعودة،

كانت الغنيمة غيرَ قانعة لـ"رايحن" فهو كان يصبو لشيء مميز عن باقي الرحلات، على الأقل في عدد الغزلان، فواحد أو اثنان لا تكفي. وكأن القدر أجابه حين أراد ذلك، فأحس بحركة غريبة بين الأشجار، وافترضه غزالا، فقام هو و "فيرون" و "اوبستير" للملاحقة، والباقي لحراسة الطعام والغزلان المصيودة، وانطلق الثلاثة نحو مصدر الإزعاج، و وصلا لمكان بعيد نسبة لمركزهم، وكان "رايجن" أسرع منهم، لعله طمع أن يصطاد الغزال بنفسه، لينال وحده الشرف وقصة يرويها للنساء.

وكما هي حال كل مغامرة فإن احتمال السوء احتمال كبير ووارد وغير بعيد، ليسقط "رايجن" بانحدار وهو مسرع فجأة، ويرتطم رأسه بحجر أفقده الوعي، فصار مفقوداً من قبل رفاقه.

رجع "فيرون" و "اوبستير" للمركز لينادوا البقية وتتوجه الجماعة للبحث عن "رايجن".

وبعد فترة غير معلومة يفيق "رايجن" و رأسه يؤلمه ألماً شديداً، ويلتفت يمنة ويسرة ليتعرف على مكانه الغريب، ويبدأ هو الآخر بالبحث عن جماعته، و لكن البحث لم يثمر عن نتيجة مرجوة كان يريدها، فلم يجد أصحابه بل وجد ذاك المخلوق المفترس، قرد البابون وهو ينظر إليه نظرة استعداء، ليتجمد "رايجن" خوفاً وحذراً من القرد الخطر، ينظر حواليه ليحدد وجهة الهرب المناسبة، وبالفعل حدد وأخذ يتراجع قليلاً

قليلاً ومعه يتقدم القرد، وهكذا حتى هجم القرد عليه وانفجرت مصانع *الأدرينالين* في جسم "رايجن" وينطلق مسرعاً، ويلاحقه القرد حتى يسقط "رايجن"، وهنا أوشك أن يموت على يد القرد، ولكن ضربة قوية على رأس القرد بحديدة قد رُميت من قبل شخص، فخرَّ القردُ صريعاً، ويلتفت "رايجن" لمنقذه وإذا به يرى أناساً غرباء، فأخذوا القرد طعاماً لهم، وربطوا "رايجن" أيضاً بالحبال.

أُسر "رايجن" ولم يُنقذ إنقاذاً تاماً، ولكنه أرحم من الموت، وأُلقي في قفص ليجد أسرى معه، ولكن التعب يغلبه فيستريح قليلا وينام.

حتى يستيقظ على أثر إزعاج وصريخ، فيجد أن بعض الأسرى الذين معه في القفص أُنتزع من مكانه، و يؤتى به إلى صخرة ملساء ليُنحر، فيغلبه الخوف، ولكن الخوفَ الأعظم لم يكن من هذا، بل اكتشافه فيما بعد أن الذبح كان إعداداً لوجبة دسمة، كانت القبيلة آكلة للحوم البشر!

كان المشهد مرعباً وغير مبرر لـ"رايجن"، ولكن أحد الأسرى تبدو عليه بعض علامات الحكمة قد برر هذا الجرم! فقال لـ"رايجن": هل أرعبك المنظر؟ إنه عمل مبرر، لو كنا مكانهم لفعلنا نفس الأمر.انتهى كلامه.

نعم فمن الخطأ أن ننظر إلى هذه القبيلة بازدراء لكونها من آكلة لحوم البشر، إذا نظرنا وفق المنظور البشري الواقعي، لا المفترض أو ما تبغيه فطرتنا البريئة، لان أكل لحم البشر في الواقع لم يقتصر على هذه القبيلة، ولأن السوء والازدراء مرده القتل وإلغاء الناس عن طريق الذبح، وبذلك يشترك أكل لحم الإنسان مع قتله، لأنه بالنهاية في كلا الحالتين يموت ويندثر، بل يشترك مع كل سبب يؤدي إلى القضاء على الإنسان، فيجب أن ننظر إلى تلك الشركات التي تصنع السلاح وتلعب دوراً في زعزعة الاستقرار في بلد ما من أجل مصالحها التجارية، يجب أن ننظر إلى الدول والحكومات - والتي غالباً ما تدعي الإنسانية- وهي تقتل 6 أطفال و4 عجائز وتحرق المحاصيل الزراعية تدر الطعام لعائلة تكاد تموت من الجوع من أجل إصابة إرهابي واحد، وفي النهاية هي غير متأكدة فيما إذا كان متهما أم لا، وهل إصابته بالضربة التي نتجت عن قتل الأطفال والأبرياء وأجاعت العوائل أم لم تصبه؟

هؤلاء أكلة لحوم بشر أيضاً، يجب أن ننظر إلى تلك الحكومة التي حاربت شعباً كاملاً من أجل أنّه قرّر أن لا يبيع سمّاً يسمى الأفيون لشعبه، كل ذلك القتل والدمار فقط لمعالجة خلل حدث في ميزان التجارة البريطانية، بل هم أضل سبيلاً وأحط من تلك القبيلة التي تأكل لحوم البشر فعلاً، لأنها تشترك في قتل الإنسان مع كل من يقتل أو

يلعب دوراً في القضاء على الإنسان، في حين أنّها تفترق في إعالة وإطعام أناس آخرين بلحوم تلك البشر، أما تلك الشركات والدول فهي تحرق تلك اللحوم وبل قد تكون تلك اللحوم مصدراً للإشعاعات النووية لإضرار أجيال وأجيال.

لكن أين هذه المقارنة وتلك المعلومات والنظرة الفوقية من فكر "رايجن" الشاب المتهور.

بقي "رايجن" حبيساً، ويتعرف في قفصه على أفراد جدد، وبعد قضاء الليلة، وبزوغ شمس صباح اليوم التالي، أيقظه أفراد من القبيلة الدموية بعنف، ثم أُنتزع من القفص ومعه أسير آخر، و لكن هذه المرة لم تكن الصخرة الملساء هي الوجهة، بل تم ربط أيديهما بحبل طويل ليسيرا مع عدد من الأسرى تم ربطهم جميعاً بالحبل الطويل نفسه إلى مكان لا يعرفه.

في الحقيقة أرادت القبيلة استغلالهم في حمل الأخشاب المقطوعة من الغابة، هذه المرة، حتى وصلوا إلى موقع، ولما كان "رايجن" يسير مع الأسرى (العبيد)، إذا به ينظر إلى فتاة أسيرة هي الأخرى، كانت رشيقة جميلة الملامح، ذات شعر كستنائي لطيف على العين، قللت همه بمفعول حلاوتها، وأراحت تعبه باللوحة الجميلة، وخفق قلبه خفق غير عادي، وأطال النظر إليها وكأنه يريد أن ينوِّم نفسه

مغناطيسياً فيتذكر البساتين الجميلة، ينظر إليها وهي تُستغل بجورٍ من قبل الحراس، فاختلطت شفقته بميله العاطفي.

فُكت الأصفاد الخشبية، و تم توجيه الأسرى و"رايجن" معهم لكسر الخيزران وتجميعه، وكان يقترب شيئاً فشيئاً من الفتاة، وهو في العمل، حتى نظرت إليه بخجل، ولعلها أُعجبت بإخلاص "رايجن" في العمل، ولكنه لم يكن إخلاصاً بالفعل بل تظاهراً بالنشاط والقوة أمامها، وأظهر كذلك مظاهر الغضب وعدم الراحة من الوضع، فنظر إليها، فابتسمت ابتسامة كانت مفتاح قلب كل رجل،و من حسن حظه أنها كانت تعرف الانجليزية بصورة بدائية، وستعرف كيف، و وجدته عندما يتذمر يتكلم الانجليزية، فبادرته بالسؤال :

من أي مكان أنت؟

"رايجن" بفكاهة: لا أعلم. فابتسمت الفتاة أكثر.

تدارك "رايجن" جملته وقال: ولكن من مكان جميل بالقرب من نهر.

الفتاة: وهل تم غزو مكانكم؟

"رايجن" : لا، كنا في رحلة صيد .. قاطعته الفتاة طالبة منه الكلام ببطئ لكي تفهم، وبينت له أنها تتكلم الانجليزية كلغة ثانية.

"رايجن" بصورة أبطأ: كنا في رحلة صيد مع رفاقي، واصطدنا عدداً من الغزلان لنعود إلى قريتنا، ولكنني أبصرت غزالاً آخراً أثناء عودتنا، فقمت أنا واثنان من الرفاق لملاحقته، وأثناء الملاحقة تعرضت لحادث سقوط من منحدر زلق، ثم لحقني مخلوق غريب حتى صادفت أفراد هذه القبيلة المتوحشة - يعني قبيلة آكلي اللحوم البشرية- ، وأسروني، وأنتِ كيف أسروكِ؟

الفتاة بحزن: لقد هاجموا أرضنا وأكلوا لحم أهلي، وبقيت وحدي.

"رايجن" مواسياً : أنا متأسف.

وإذا بالحارس يكتشف الحوار فيضرب "رايجن" بعنف ويطلب منه الاستمرار بالعمل، وسقط "رايجن" من الضرب وإذا به يلمح إحدى الخيازرين المكسورة نهايتها حادة، فأخذ بالخيزرانة طاعناً رقبة الحارس، ليسقط و الفتاة مذعورة، و"رايجن" كذلك، فيأخذ بيد الفتاة ليهربا معاً، ويلمح حراس آخرون الأمر فتبدأ مطاردة جديدة.

وكان أحد الحراس أخاً للحارس المقتول، فكانت رغبته للانتقام هرمونا للسرعة والحماس، وكان قاسياً جداً مع الأسرى والفتاة ورفاق "رايجن" بالقفص، وكان أضخمهم وأرعبهم، لم يكن كذلك فقط، بل ابن زعيم القبيلة ويدعى "فان".

وتستمر الملاحقة طويلاً، وتتعثر الفتاة، لتكون خلف "رايجن" ويهم الضخم لقتلها، ولكنه ينظر لوجه "رايجن" ليرى عطفه على الفتاة، وفهم ابن "فان" تعلق "رايجن" بالفتاة، فأشار بحركة النحر وحركات تدل على أنه يريد تعذيبها، و "رايجن" عاجز عن الحركة، محتار، ثم يتدرج الغضب فيه ويرغب بالرجوع، وجلب الإزعاج الذي حدث رفاق "رايجن" الذين بحثوا عنه لمدة تقارب اليوم حتى يأسوا، فرأوه ثم تعانقوا وفرحوا، ولكن "رايجن" أراد الرجوع للقبيلة مع أصحابه لإنقاذ الفتاة، ولكن تردُّدَ أصحابه كان حائلاً لذلك، وقالوا له إن مهاجمة ستة أفراد لقبيلة كاملة تعتبر انتحاراً. وعرف "رايجن" بأن الرجوع للقرية يتطلب أياماً، وهذا يعني أن الفتاة ستقتل، فيأس تماماً واعتبر الفتاة ذكرى جميلة، وهكذا قرر المغامرون العودة مكتفين بما اصطادوه.

يسأله الأصحاب: ما الذي حدث ومن هذه الفتاة؟

"رايجن" : لقد سقطت في حفرة وأسرت من قبل هؤلاء الكلاب! هؤلاء الكلاب الذين يقتلون الناس ويأكلونهم وليس فيهم أي تقدير للجمال.

"فيرون": ومن هي تلك البنت هل تعرفها؟

"رايجن": تعرفت عليها للتو، وكانت أسيرة معي، وهي في أعلى مراتب البراءة واللطافة.

يبتسم "فيرون" وينقز "رايجن" : ما هذه القصة الرومانسية!

وهكـذا يعـودون أدراجهـم حتـى اقتربـوا مـن قـريتهم، ولكـنهم اكتشفوا أثناء عودتهم واستقبال أهلهم لهم، أنهم كانوا ملاحقين من "فان" وجماعته، فهاجم "فان" القرية وأثار القتل والفوضى فيها منتقماً لأخيه، وكان يبحث عن "رايجن" وقد ظهر له كما كان يريد، وتصارع الاثنان طويلاً، حتى وصلا بالصراع المدوّي إلى مياه النهر، وهنا تمكن التعب من "رايجن" وتمكن "فان" منه، وبدأ بإغراقه، حتى أغمي على "رايجن" أو تظاهر بذلك وظن "فان" أنه قتله، وهنا أوقف هجومه وانسحب بسرعة مع رفاقه.

هُوجمت قرية آل "والكوت" وقتل من قتل فيها وجُرح من جُرح، وأفاق "رايجن" وخرج من الماء، ومشى إلى قريته متأملاً الدمار، حتى ظهرت له جثة عزيزة عليه، حولت قلبه من قلب شاب لطيف أحب فتاة بنظرة أولية وطامحاً بثناء قبيلته عليه، من مغامرة متواضعة، إلى قلب شخص أظلمت أي فكرة أمام خياله إلا فكرة واحدة، وهي الانتقام والغضب، وتجمع رفاقه لينظروا إلى القتيل العزيز، لتتحول قلوبهم إلى مثل ما تحول إليه قلب "رايجن"، تحولت قلوبهم إلى أحجار ملتهبة، وهكذا تجمع الشباب وكل من كان يستمع لقصص و روايات القتيل الحبيب، كان القتيل هو "والكوت" العجوز!

تجمع الشباب والرجال، وتجمعت أسباب الانتقام معهم، فمن أب فقد ابنه إلى ابن فقد أبيه، من ضحية للقتل إلى ضحية للجراح أو السرقة، من متعرض للاهانة إلى من تعرض قريبه أو صديقه للسبي والأسر، نعم كان عددُ الضحايا قليلَ الكمِ نسبياً، ولكنه بالنسبة لقلوب "الوالكوتيين" كبير الحجم والكيف. تجمعت كل هذه الأسباب لتبرر قرار آل "والكوت" الذي مؤداه الانتقام، وشعاره : الثأر لـ"والكوت" وأبنائه، و تقدم "رايجن" ورفاقه الجماعة الثائرة ليدلهم على مكان جماعة "فان"، وهكذا ساروا بنفس طريق المغامرة، ستكون رحلة صيد، لكنها بشرية هذه المرة.

من منا لا يرغب بالانتقام عندما يتعرض لأدنى أذى، فالبعوضة - التي تعيش 14 يوماً فقط أو أقل- نعدمها ونمنعها من التهني بأيامها المعدودة القليلة لمجرد قرصة هي ضرورية لتبقى حية، فما بالك بقتل شخصا عزيزا عليك؟ أفلا يستحق هذا القاتل التعذيبَ والسبيَ والقطعَ وحرق أهله ولعن ذريته قبل أن يقتل هو وآله؟ بالمنطق البشري الذي نراه عند قراءة التاريخ ونتأملُ أفعال الناس فإن الجواب هو نعم، فكم من أسرة مُسحت من الوجود لمجرد ناقة أو سباق خيل كما في حرب البسوس؟ كم من مدينة دُمرت و رُش أرضها بالملح لمجرد أن منتجاتها أفضل من منتجات دولة أخرى كما مُسحت قرطاجة وتم رش أرضها

المدمرة بالملح لكي لا تكون صالحة للزراعة؟ كم من شعب طُرد ومُنع أطفاله الأبرياء لأن احدهم فقط مد يده على أحد أفراد شعب آخر؟ كثيرة هي الأحداث المماثلة والتي كان نبعها هو رغبة الإنسان للانتقام، ففي الانتقام فطرة مزروعة في الإنسان وهي من منبع العدل الذي فطر عليه أولاً، وكثيرة هي الفطريات البشرية - لا أقصد بها البكتيريا وماشابه بل جمع الفطرة- ولكن المشكلة ليست في وجودها، بل عندما تستولي على أرض فطرة (حب العدل) جيوش الأنانية. في كلنا صراع بين الأنانية المفرطة وبين الفطريات المعتدلة، عندما تكون الفطرة المعينة كالعدل مثلاً أو حب القريب والأهل قابعة في ظلام الأنانية القاتمة فإن ذلك يؤدي إلى الإفراط، فبدل أن يجازي المجرم بمثل ما فعله وبنفس المستوى فإنه لا يقتل القاتل فقط، بل يعذبه نفسياً وجسدياً ثم يستلذ بقتل أبناءه وحرق أهله أمام ناظريه ثم يعدمه بالميتات السبع (المقصود من الميتات السبع طريقة فارسية قديمة للإعدام) ثم يقتله! فلن يكون هناك (العين بالعين والسن بالسن) بل سيكون هناك القتل والسبي واللعن، فحتى روحه بعد موته ستتعذب، فهل الفطرة السليمة تؤمن بان سرقة دجاجة من محصولك - والسارق لم يكن يريد إلا إنقاذ نفسه من الموت جوعا أو عياله- يستحق عذاب الدنيا والآخرة؟ لما يُحرق المهرطق بعد تعذيبه وسحب اعتراف منه في محاكم التفتيش ثم يُعدم، وبعد ذلك

نقول بأنه سيتعذب في جهنم خالداً فيها وإلى الأبد وبئس المصير!! أين العدل هنا الذي فطرنا على حبه؟ ما ذلك كله إلا لأن هذا المهرطق أو ذاك السارق وذاك القاتل تعرض للـ(أنا) المقدسة، معبودة الناس الحقيقية، فويلك عندما تتعرض لها، فهنا سيكون الانتقام غير عادل وغير ما كانت تفطره الفطرة البريئة السليمة، سيكون دماراً وعذاباً وقتلاً وسبياً وطرداً يتوارثه الأجيال والأجيال، يتوارثه الهوتو والتوتسي والكاثوليك والبروستانت واليابانيين والكوريين و السنة والشيعة و.. و.. و.. رغم أن الحدث المتنازع عليه أو السبب قديم قدم هابيل وقابيل ولا دخل لابن الزمن اللاحق فيه.

فلا تتوقع من "رايجن" ورفاقه أن يطبقوا قانون حامورابي أو يتمثلوا للآية (واعتدوا عليهم بمثل ما اعتدوا عليكم وان تعدلوا هو أقرب للإيمان) وليس هناك مجال للتوبة والغفران إذا حكمت الأنانية ولم تُعوض بشيء أو ترضى بقربان، فلا تتوقع منهم ألا يفكروا بتعذيب "فان" وجماعته، لا تتوقع أن لا يفكروا كما فكر "فان" نفسه عندما وجد أخاه صريعاً من قصبة "رايحن" الخيزرانية الحادة، هذه هي النفس البشرية إن لم تُقوض بالأخلاقيات أو بتعليم يعيدها إلى الفطرة ومستواها العادل الطبيعي، وإلا سنظلم أنفسنا قبل ظلم الآخرين.

ولاحق "الوالكتيون" أثر "الفانيين" و وصلوا إلى قريتهم، و أطلقت أبواق الحرب بين القبيلتين، وبعد ليلتين تقريباً من اللحاق والمسير، اجتمع "الوالكتيون" لإعداد الخطة، وكل منهم ماسك بمضربه وحديدته وسكاكينه وغيرها من أسلحة ذلك الزمان، ووضعت الخطة، وهي الهجوم بلا خطة، فالعصر حجري أينه وأين الخطط العسكرية؟ ولكنهم اتفقوا بأن يكون الهجوم بغتةً أول الفجر.

انتظروا الفجر، و"الفانيين" لا يزالوا نياماً، يستيقظ منهم عدد من الأفراد على ضوء الفجر الكاذب، و"الوالكوتيون" يتربصون أفضل وقت للهجوم، و قد رأى "رايجن" الفتاة الجميلة مربوطة ولكنها سليمة، ثم جاء الوقت المناسب، فتحركوا ولكن دون صوت، كما اتفق آل "الوالكوت"، ليُبقوا النائم نائما حتى تكون الضربة الإبتدائية قاضية، وهكذا هاجموا وقتلوا من قتلوا، وضجت القرية، وقامت قبيلة "فان" بمهمتهم الواجبة، الدفاع عن الوطن والأهل، وحدثت المعركة، كان "رايجن" يبحث عن "فان" و"فان" لا يعلم بأنه حي، ولكنه علم بأن هذه هي القبيلة نفسها التي كانت ضحيته وضحية انتقامه لأخيه، فصرخ صرخة القتال وبدأ هجومه أو دفاعه.

ذهب "رايجن" وأطلق سراح الفتاة، فرآه "فان" وهكذا صارت المبارزة العنيفة، فمن ينتقم لنفسه؟ "فان" لأخيه أم "رايجن" لـ"والكوت"

؟ كانت الحمية المعنوية لكلاهما وافرة، ووسط الضجيج و تضارب طويل بين الاثنين، تمكن "رايجن" من "فان" ومن كثر جروح "فان" -وهو لم يمت بعد- سقط "فان" وهو لا يستطيع الحراك، وينظر إلى "رايجن" -وهو لا يعلم أنه قتل أخا "فان"- ويبحث عن صخرة صلبة قاسية ليقتل "فان" بها، وهو يهم بذلك تكلم "فان" بكلماتٍ لغةً لم يفهمها "رايجن" ثم نظر إلى السماء، استغرب "رايجن" ما عمله "فان" ولكن هذا لم يثنيه من الانتقام، وعدد من قومه ينظرون إليه منتظرين لحظة الانتقام المرتقبة، ولبى "رايجن" نداءهم، فشرخ رأسه بضربة عنيفة بالصخرة كما شرخ قابيل رأس هابيل، ثم كرر ضرباته حتى تطايرت الدماء على وجهه وساوى الرأس بالأرض، وهتف "الوالكتيون" بالانتصار، وهربت عصابة "فان" ، وتم أسر بعضهم وتم جعلهم أرقاء، وسبي النساء، وسرقت كل ممتلكات "الفانيين".

ووسط الاحتفال والرقص والغناء، توجه "رايجن" البطل إلى فتاته وهو مغتبط، والفتاة كذلك سعيدة لتحريرها، فسأل "رايجن" : لم أعرف اسمك طول هذه الفترة والأحداث؟ فأجابت: اسمي "زهرا" ، ولفظها "رايجن" -و"الوالكوتيون" فيما بعد بـ"زارا" وبعضهم ظن اسمها "سارا"- ، وأبدى الطرفان سعادتهما وتشرفهما بمعرفة بعضهما البعض، ثم توجهوا

إلى أصحاب "رايجن" فمروا على جثة "فان" فقال لها "رايجن" مفتخراً: أنا قتلته، فقالت "زهرا" ساخرة: مسكين لم يستطع الانتقام لأخيه!.

"رايجن" مستغرباً متفاجئاً : لأخيه؟؟!!

"زاهرا": نعم، ألم تعلم أنك قتلت أخاه بالقصبة عندما ذهبنا أسرى لجمع الحطب والخيزران؟؟

فأخذت الرهبة "رايجن" والتحير يسكته، ثم قال: قد قال الضخم كيت وكيت - وتلفظ بنفس الألفاظ التي نطق بها "فان" قبل مقتله ونظره للسماء-، فترجمتها "زاهرا" وقالت: أنه قال: آسف يا أخي لم أستطع أن أثأر لك. يريد مخاطبة روح أخيه.

هنا خارت قوى "رايجن" فجلس على مقعد كان بالقرب منه، و أخذ التفكير عقله، وابتعد ذهنه كثيراً عن مراسم الرقص والغناء والاحتفال، قد قتلت بيدي شخصين اخوين أحبا بعضهما البعض، وهنا علم أن "فان" عندما أتى إلى قبيلته غازياً مدمراً لم يكن إلا انتقاماً لأخيه، نفس السبب الذي حرك "رايجن" نفسه ليهاجم ويغزي قبيلة "فان"! نظر إلى السبايا والأسرى والقتلى، ثم نظر إلى يديه وأحس بالذنب. شيء محير بالفعل، من المخطئ الآن؟ وسبب كل هذه المآسي؟ "رايجن" عندما بدأ بقتل أخ "فان"؟ أم "فان" عندما قتل "والكوت" ؟ أو عندما ذهب "رايجن" الصيد ليتباهى بهذه الرحلة أمام الجميلات وقبيلته فيما

بعد؟ أو عندما طار وحده مسرعاً نحو الطريدة ليتعثر فيما بعد ويتصادف مع قبيلة "فان" ؟ أم "فان" المخطئ عندما كان ينظر رجاله وهم يعاملون الأسرى معاملة خشنة دون أن يمنعهم؟ أم عندما يأكل لحوم الناس؟ و"رايجن" لا ينظر إلى هذا العمل على أنه تطعيم لعياله وأهله الذين نالهم القحط والجوع في ظروف هذا الزمان الصعبة؟ إذا كنت ترى هذه المعاملات "الفانية" سيئة ومحط زجر ولوم فاسأل نفسك قبل أن تحكم: لو مرت قبيلة "والكوت" بنفس الظروف البيئية والنظرية ألن يفعلوا مثل أفعال "الفانيين" ؟ وها هم يفعلون نفس العمل انتقاماً لحبيبهم، وهم لا يعلمون بان هجمة "الفانيين" الأولى سببها نفس السبب، وهو قتل الأناني المغامر "رايجن" لأخ "فان"، وهل خسائر "الوالكوتيين" بنفس حجم خسائر "الفانيين"؟ لا، فقد خسر "الفانيون" حريتهم وموطنهم مقابل خسائر بسيطة للـ"والكوتيين" وأعظمها عجوز كان سيموت قريباً! هل هذا عدل؟ لا، هل هذا انتقام؟ لا، لأن قبيلة "فان" من يجب أن ينتقموا، قد يكون "رايجن" منتقماً لماء وجهه عندما غلبه "فان" في المعركة الأولى، قد تكون الفتاة الجميلة هي سبب الغزوة .. انظر إلى هذه القصة في بساطتها هي معقدة ولا نستطيع أن نحكم حكماً نهائياً، فما بالك عندما نقرأ تلك القصص المعقدة، بل وفيها تفاصيل لا نعرفها وظروف قد تجعل الذي كان في نظرنا مجرماً بطلاً بريئاً، والبطل العظيم مجرماً

سفاحاً أنانياً، هذا ليس في التاريخ فقط بل وفي حياتنا اليومية في مجالات مختلفة عندما نريد أن نحكم على الآخرين، من السهل إن نقول هذا مجرم أو بطل، ولكن من الصعب معرفة من هو البطل فعلاً ومن فعلاً هو المجرم، هذا في فرض وتسليم بأن المنطق يتكلم دون تأثير الأبعاد العاطفية والأنانية والمعيارية والعصبية ..الخ، فما بالك في حال تدخلت كل تلك الأبعاد غير الموضوعية والمنطقية، وهذا حال الكثير منا إن لم يكن حال الجميع. ويا للمصيبة إن كان الحكم يستتبع عقاباً، فالناس أغلبهم وبنسبة 99,9 ٪ لا يتذوقون روح القانون ولا يعيشونه، فهم يرون بأن القانون هو الغاية وتنفيذ عقوباته هو هيبته الضرورية، وينسون إن القانون وسيلة لتحقيق العدل والسعادة للمجتمع والإنسان، كم من برئ حُكم عليه بالحرق والقطع والسجن وفي النهاية تبرئه المحكمة نفسها! وهل كل المحاكم منسلخة من أنانيتها ونظرية الهيبة؟ وهل كل المحاكم يتوفر لها الدليل على براءة البريء؟ والعقل لا يستحيل وجود دليل غائب على المحكمة؟ وكم من مجرم لم يحاكم؟ فمجرد الحكم على المجرم الحقيقي ومعاقبته في حين أن هناك مجرمين ارتكبوا نفس الجريمة لا يعاقبون يعتبر جريمة.

في المحكمة، في الحياة، في التاريخ.. يوجد أسماء نعتها الناس بالإجرام والظلم والجور.. الخ ، ولكن هل يستحيل وجود دليل براءة لهم

ولكنه غائب عنا؟؟ بالطبع لا، وفي كل مورد حكم يوجد هذا الاحتمال، فلماذا نستعجل الحكم على الآخرين؟ ونتحمس أكبر حماسة لإعدامهم وقطع أياديهم، لماذا منطق الأبيض أو الأسود عندما نتكلم عن الناس، هل بالضرورة أن نحكم على أفعالهم وشخصياتهم عندما نتحدث عنهم؟ وهل يوجد شخص لا ينقسم الناس حوله ويستطيع من يستطيع أن يصوره بالصورة التي يحبها ويريدها؟ فـ"ملتياديس" يمكن اعتباره بطل التحرير اليوناني، وهازم الفرس الجشعين، ولكنه ألم يخدم الفرس من قبل وكان مرتزقاً عندهم؟ ألم يحاكم فيما بعد بالنفي لفساد حكمه؟ وكذلك "ثموستكليز" و "باوسنياس" وهم أبطال الحروب والاستقلال ؟؟ ألا يمكن اعتبار "الإسكندر" المقدوني بطلاً عظيماً وابن إله وأسطورة لا تكرر بسهولة وهو السفاح وقاتل أصحابه والسكير والمحرق للمدن الجميلة .. ؟ أليس البابا اوربان الثاني -القديس ومعشوق المسيحية وممثل الله في الأرض- مجرماً حينما حرض للحرب الصليبية ومسبب لحرب دموية استمرت 200 سنة مات فيها من مات وقتل فيها من قتل وسبي فيها من سبي؟ نسأل: هل كان يعلم بما ستفعله الحرب وما سينتج عنها من ويلات؟ لعله كان متحمساً دينياً وبريئاً في تفكيره لا يريد ألا عبادة الله؟ ولكنه لم يعلم الطريق السليم؟ ممكن .. كل شي ممكن، ألا يمكن أن نعذر "جنكيز خان" باجتياحه العالم الإسلامي عندما نعلم

بجريمة الملك الخوارزمي المسلم في البداية وماذا فعل بالتجار المغول وبرسل "جنكيز خان"؟ وعندما نتعرف على عقائد المغول؟ هل كنا نعيش طفولة "تيمورلنك" و"نابليون" و"ستالين" و .. و .. و .. ، هل نحن بذلك الإلمام والعلم بكل ظروفهم النفسية والاجتماعية والفكرية و .. و .. و .. لنطلق حكماً عليهم بهذه البساطة؟ ونقول إن هذا مجرم وذاك بطل؟ إن عملية الحكم وخاصة الحكم الذي يلازم العقاب خطرة جداً، و فيها ننال من أبرياء ونلغي جهودهم التي لعلها أفعال خاطئة لأفكار بريئة، و كما قيل: الخطأ في الثواب خير من الخطأ في العقاب، لأن الخطأ في الثواب لا تضر به البريء إن ثبت أنه لا يستحق، أما الخطأ في العقاب فالضرر كائن بحق البريء، فهل دعوة الاحتياط بنشر الاتهامات وتجريم الغير دعوة باطلة ستكون؟ لسنا مضطرين حينما نسرد قصة تاريخية مثلا أو مواقف أناس أن نحكم على الأشخاص بأنهم كذا وكذا، لسنا مضطرين لأن نكون دكتور "فل" أومحللين للشخصيات، على الأقل لنقل بأن الفعل الكذائي هو فعل ظالم، فالاحتياط في الحكم على الآخرين أسلم وأريح.

قرص قلب "رايجن" واستشعر أن الحكمَ على الناس أمر صعب، وإنه يمكن إتهام أي شخص وتأويل أفعاله بأنها أفعال الخير أو أنها أفعال الشر، ويمكنا أن ننظر إلى الأدلة والبراهين بأي نظرة نريدها نحن،

تريدها الـ(أنا) لإراحة نفسها وتقديس نفسها، نعم الأنانية أيضاً وهي موضع اتهام في أي حدث مروع، والدليل القاطع على ذلك أنك تجد الإنسان دائما يميل إلى تبرير أفعاله وإنه بريء، بينما غيره متهم، وكلما ابتعد الفرد عن الـ(أنا) اقترب منه الاتهام، ومن هنا قيل (أنا وابن عمي على الغريب، وأنا وأخي على ابن عمي) ويمكن أن يُكمل بـ(أنا وحدي على أخي).

ولكنه تعب من الضجة وأراد الراحة، فبعد رحلة الصيد والمعركتين ليس له مزاج بمخالفة أهله وقبيلته ومناقشتهم للحصول على الجواب المريح لحالة شكه وتحيره ، فسايرهم ووزع الابتسامات وتقبل التهاني على بطولته! ، وتوجهت خالته لتطلب التعرف على "زاهرا" فعرَّفَ "رايجن" "زاهرا" على خالته، وانضمت "زاهرا" لنساء "الوالكوتيين" واحتفالهن، ثم جاء منتصف الليل ليغزو النوم جفون "الوالكوتيين".

سكن آل "والكوت" مسكن "الفانيين" عدة أيام ولكنهم فضلوا الرجوع إلى مكانهم لكونه أوفر من الناحية الاقتصادية وأكثر أمانا، فعادوا إلى مكانهم.

وهم يعودون، صادفوا شبيبة غلب عليهم مظاهرُ التعب والجهد، عطاشى جوعى، لم يبينوا أي مَعلَم للعدوان، لعل الضعف جعلهم

مسالمين، فاقترب "الوالكوتيون" إليهم، وعرضوا عطفهم عليهم، ما بكم؟ من أين جئتم؟

أجابت الجماعة المجهدة: من أرض السودان. (يعني أنهم جاؤوا من الشمال هرباً)

"الوالكوتيون" : وماذا حدث؟

الجماعة: قد غزانا جيش الظلام، جيش الشيطان!

وينتاب"والوالكوتيون" الرعب والذهول. ثم يتقدم "فيرون" ويسأل: جيش الشيطان!!

الجماعة: نعم، فقد جاء عهد الطوفان الجديد.

"فيرون" : أي طوفان؟

ثم تكلم أحد أفراد الجماعة، عليه علائم الخبرة في مسائل القدماء: قد روى أسلافنا أن طوفان عظيم قد أصاب الأرض في القديم البعيد، قضى على كل البشرية ما عدا من ركب سفينة بناها رجل حكيم، وقال الأسلاف أن الطوفان سيأتي مرة أخرى ليقضي على الناس جميعهم، أنه طوفان ياجوج وماجوج الموعود، أنه الموت الذي بعده الحساب!

"فيرون": ما هذه الأساطير؟ لعل التعب غلبهم.

ثم يسأل أحد أفراد الجماعة "الوالكوتيين": هل أنتم من سكان المدينة؟

"الوالكوتيون" : أية مدينة؟

الجماعة: التي في أعلى النهر (أي النيل، أي أن المدينة تقع في جنوب أفريقيا)، مدينة محصنه وعظيمة، يسكنها الناس، يتوفر فيها الطعام والشراب والمناخ الممتاز، ونحن سنذهب إليها.

هنا يتصور "الوالكوتيون" أنها الجنة المفقودة، فردوس الأجداد الذي كانوا يبحثون عنه، ثم يعرضون على الجماعة الإقامة معهم مؤقتاً حتى يستريحوا، ليواصلوا رحلتهم فيما بعد، وقد تقبلت الجماعة ذلك.

أثارت هذه القصص فضول "الوالكوتيين"، فهي قصص مثيرة: جيش الظلام، ومدينة الفردوس، وخلال المسير لم يحسن "الوالكوتيون" الضيافة من كثرة الأسئلة عن جيش الظلام والمدينة العظيمة، وصارت هذه الأحداث متصدرة عناوين صحفهم النفسية، وأطلق الخيال عنانه، وتجدد الأمل بالعيش الجميل، وعادت قضية الجنة الشغل الشاغل لهؤلاء الرحل.

# الفصل الثالث

## الفصل الثالث:

# الهجرة إلى الفردوس

ما إن وصل الرحل إلى أرض "الوالكوتيين" واستراحوا من السفر، حتى عقد "الوالكوتيون" اجتماعاً عنوانه : الفردوس، المدينة التي تحدثت عنها الجماعة التي لقوها في طريقهم، ما رأيكم؟، تكلم أحد الكهول. و "رايجن" ورفاقه يستمعون.

أحد الكهول: إنها الجنة التي بحث عنها الأسلاف.فهل ترون ما أرى؟ -ويقصد الترحال مع الشبيبة إلى المدينة التي قصدتها الجماعة الهاربة من جيش الظلام-.

آخر: وما البرهان على ذلك؟

يرد الأول: ألم تسمع ما قاله الشباب؟

وآخر: الجميع يبحث عن الفردوس، أسلافنا وأسلاف غيرنا، وما يبحث عنه هؤلاء الشبيبة بالتأكيد مبني على معلومات ورثوها عن أجدادهم.

آخر: نعم، إن أعلى النهر بنفس الجهة التي أشار إليها الأسلاف، وقد قال "والكوت" أنه بتتبع النهر سنجد الفردوس، لأن الماء الذي يصب في النهر إنما يأتي من الفردوس، فهو يصب للناس ويرويهم عن طريق هذا النهر -وهو يشير إلى فرع النيل الذي يقيم "الوالكوتيون" عليه-.

المشكك الأول الذي طالب بالبرهان: ولكن ماذا لو ارتحلنا معهم ومات معظمنا من تعب الطريق وفي النهاية تكون المدينة هي غير الفردوس الموعود؟

مترأس الجلسة: إن الموارد هنا مؤقتة، ولابد من الرحيل يوماً ما.

المشكك: نعم، ولكن ليس الآن، فالخير موفور الآن، ويجب أن نستغله أتم استغلال.

أحد أعضاء الجلسة يوجه السؤال إلى الشباب الذين وجدوهم بالطريق: يا أيُّها الشباب! كيف عرفتم وجهتكم؟ كيف عرفتم موقع المدينة التي هي بغيتكم؟

أحد الشباب: لسنا متأكدين، ألم تروا حالنا، نحن هاربون في الحقيقة أكثر من كوننا باحثين، نحن لا نريد أن نفرض عليكم مسيراً أو اتجاهاً، فنحن لا نملك شيئاً قد نخسره، فقد خسرنا كل شيء من

اجتياح جيش الظلمات لقُرانا التي على النهر، و لا استبعد بأن تلك الوحوش الحديدية! تتجه إلى تتبع هذا النهر أيضاً للقضاء على كل حياة إنسانية.

ينهض أحد الشبان: بما أننا في خطر غزو ياجوج وماجوج! وكذلك مواردنا ستنضب يوما ما فإنني أرى جلوسنا هنا وسكننا هنا قد يؤخر هروبنا في المستقبل، فمن الممكن أن يكون الجيش المتوحش يسير نحونا ونحن لانزال نتناقش قصةً توارثها الأجداد، وعند قدومهم قد لا يكون لدينا الوقت الكافي للهرب، فسواء كانت بغيتهم موقع الجنة أم لا ، فإن الهرب جنوباً سيوفر لنا الأمن، وعدم التحرك يشكل خطراً علينا، ونحن على أمل أن تكون تلك المدينة التي يتحدث عنها هؤلاء الشباب مكانا آمنا، وأن تكون محصنة من الأخطار.

أحد المعترضين لخطة المسير: كل ما تبنون عليه هو مجرد افتراضات، فلسنا متأكدين أصلا من صحة خبرهم بأن هناك جيشاً فعلاً، بل لسنا متأكدين من وجود الجنة أصلاً.

يخرج شخص ويؤيد كلام الأخير: نعم لعل هؤلاء لفقوا القصة ليعيشوا على خيراتنا، فلعلهم قُطاع طرق قد تم طردهم أو ماشابه.

هنا يعتفس المجلس ويتخبط ويعلو الصراخ والاعتراضات، فالجماعة الشابة انسحبت بعد تشكيك أحد "الوالكوتيين" بالخبر، وثاني يتهم الجماعة الهاربة بأنها جماعة طفيلية، في المقابل أعترض آخرون على تشكيك البعض بوجود الجنة، فانقسم آل"والكوت" قسمين: الأول قرر أن يبقى مكانه ، والآخر خير الرحيل مع الجماعة الهاربة.

وأصبحت القبيلة في انتخابات، وتنافس بين حزبين، فكل جماعة تدعوا وتحاول إقناع أكبر عدد من قبيلتها لكي تبقى (مع الجماعة المشككة) أو ترحل (مع الجماعة المؤمنة)، انقسم المجتمع الواحد، وكأن المجتمع الإنساني مهما كان كنهه فلا بد يوماً من أن ينقسم، فهؤلاء "الوالكوتيين" على مدى أجيال وأجيال كانوا أمة واحدة تجمعها المصالح والعادات الواحدة واللغة الواحدة - رغم دخول أصول مختلفة ولكنها كلها في النهاية تبنت اللغة التي يتحدث بها "الوالكوتيون" لكونهم الأغلب- والآن يتعرض لهم حدث قسمهم، وهل هذا شيء غريب؟! بالطبع لا، فقد كانت الإنسانية أمة واحدة، ثم خُلق منها شعوباً وقبائل، يتكاثر الناس وتتكاثر العقول، يختلف الناس باختلاف الظروف الجغرافية والاقتصادية والمادية، وتختلف العقول

في التفاسير والمذاهب والرؤى، الأمة الواحدة تنقسم بسبب تعدد مدن التي تسكنها، والمدن تنقسم إلى قرى، والقرى تنقسم إلى قبائل، والقبائل إلى أسر، والأسر إلى الآبناء والبنات والآباء والأمهات، والأخوة ينقسمون في لذاتهم وأذواقهم ..الخ، بل النفس تنقسم بين نفس اللوّامة والضمير المثالي وبين الشهوانية والأنانية، تنقسم كما قسمها "فرويد" إلى أنا وأنا أعلى وهو، إذن قد تنفصم الشخصية، والاختلاف سنة تكوينية لا بد منها، ولا نستطيع أن نجد مجتمعاً استمر دون طروء اختلاف ما فيه، فالبشرية تحمل في نفسها بذور الاختلاف، وهذه أبداً لم تكن مشكلة، بل كما روي عن نبي الإسلام (ص) أنه رحمة إلهية للناس، به يتطور المجتمع بل ويتطور الشيء و هنا قد يصح كلام "لاو تسو" و "هيراقليطس" و "هيجل" و"ماركس" في أن الأضداد عملية تكوينية تولد نتيجة أفضل من المتضادين السابقين، ولكن ما نراه ونلاحظه في المجتمع الإنساني هو أن الاختلاف كان نقمة وسبب البلاء، فأين الإشكال؟ الإشكال كائن في كيف نختلف؟ إذا قادت العصبية راية الاختلاف وعمليته كانت النتيجة وخيمة وسيئة، فأنا اختلف معك في الذوق وفي الرأي، هذا أمر طبيعي، ولكن متى تبدأ المصيبة؟، عندما اعتبر المختلف معي عدواً، وأتعامل معه

كأنه يريد أن يلحق الضرر بي، فأضره واعتبره حاقداً علي فاحقد عليه، واعتبره أنانياً فأتأنن معه، ثم تزيد المصيبة فاقدح بكل شيء ينتمي له، وأعتبره دنساً، أما رأيي وكل ما ينتمي للأنا فهو المقدس.. وهكذا، فالعصبية كالداء المعدي ينتشر ويُتوارث، فمن اختلف مع آبائي أختلف معه وأُجري عليه كل إجراءات الاختلاف المتبعة: من حقد واستهزاء وكره وإلغاء ووصفه بالنجاسة والدونية ..ألخ لماذا؟ فقط لأنه قال بأن "انجلينا جولي" جميلة وآخر قال لا!! فقط لأنه قال بأن مطعم "فرايندليز" يقدم وجبات غير لذيذة وآخر قال بل لذيذة!! بعض هذه الاختلافات وصلت إلى الضرب والعنف سببها أن صديقي الفلاني شجع منتخب هولندا والآخر الأرجنتين! وآخر يلعب مدافعاً في فريق القدم والثاني مهاجماً، وكان الاختلاف في أين تقع المهمة الأصعب في الفريق؟؟!!! فما بالك في قضايا أكبر من هذه؟ فعندنا صراعات عنيفة قائمة فقط لأن في البطاقة المدنية يوجد اسم عائلة يختلف عن الآخر، زيجات تُرفض أن تكون رغم علاقة الرضا والحب بين الطرفين، فقط لأن أجداد الصبي الذين ينتمون للقرن الثامن عشر سكنوا العراق وأسلاف الفتاة في القرن السابع ميلادي سكنوا الإحساء!!! ما لنا وأشخاص لا يعرفوننا ولا نعرفهم، فقط تربطنا بهم

(أسماء) ؟؟ وهل الاسم شيء واقعي؟ وما بالك في قضايا تمس الدين مؤداها أن فلان بن فلان هل اخطأ في العمل الكذائي قبل ألف سنة أم لم يُخطؤ؟ دماء تسيل في العراق من اجل معتقدات هم لا يعرفون عنها أي شي ولا إلى أي قرن تنتمي هذه المعتقدات، فقط لأن عشيرتهم تعتقد بتلك المعتقدات والآخر لا! الاختلافات واردة ولكنَّ المشكلة في كيف نختلف ونتعامل بالاختلاف؟ كيف نعدِّل التربية فنعوِّدُ الأبناءَ منذ الصغر على التعامل السليم مع الاختلاف؟ إن المشكلة كل المشكلة عندما نعطي راية التعامل ليد الأنانية والعصبية، فهنا سيكون الخلاف دموياً ومتخلفاً، هنا يريد الأناني فقط أن يلغي الآخر.

ولذلك سار الخلاف بين "الوالكوتيين" بالاتجاه السيء، بسبب اختلافهم على المصلحة المبنية على معلومات قد إعتقد بها طرف وآخر كفر بها، وحدثت نزاعات وصدامات، وكأن الاختلاف ليس هدفه مصلحة القبيلة والحفاظ على أمنها وامن أبنائها، قد تعودنا على مثل هذه الأحداث.

"رايجن" بين تلك الآراء بدى متحيِّرا، ولكنه كان من طينة المغامرين ومن أسرة مؤمنة وكان يحب "والكوت" وقصصه، لذا مال إلى الإيمان، وكان مؤمناً، واختلف رفاقه أيضاً، وكان الطرف الثاني

يرأسه "فيرون" ، ولكن المودة التي كانت بين "رايجن" و "فيرون" والثقة المتبادلة بينهما لم تُسَير الخلاف كما سار عند أغلب القبيلة ورؤسائها، ولكن أهل "فيرون" كانوا من المتشككين، بخلاف "رايجن" وأهله، وكذلك باقي الرفاق، وانقسموا هم كذلك بحسب عوائلهم، وحاول كل منهما إقناع الآخر، ولكن سلطة العادة - بأن يتبع كل واحد أهله- كانت أقوى.

وهكذا بقي المشككون، وارتحل المؤمنون، وودع الأحبة بعضهم بعضاً، وكذلك ودع رفاق "رايجن" بعضهم بعضاً، واحتضن "رايجن" رفيقه "فيرون" وطلب كل واحد من الآخر الاعتناء بنفسه.

كان مع "رايجن" صديقته "زاهرا" و "بشير" و "لي" ، وبقي "اوبستير" و "بامير" مع "فيرون".

بدء رحيل المؤمنين وانطلقت هجرتُهم المقدسة، وهم ينظرون خلفهم وفي قلوبهم أمنية كان بودهم لو تحققت، تمنوا أن أهليهم معهم لا يفرقهم أمراً، تمنوا أنهم معهم في الرحلة، ولكن .. الوداع يا أصدقاء. وكذلك كانت أمنية الجماعة المشكّكة، وهم ينظرون نفس النظرة للمؤمنين وهم يصغرون حجماً في العين كلما ابتعدوا، حتى اختفوا عن الأنظار وفي القلوب غضاضة.

سـار المؤمنـون متتبعـين النهـر، متتبعـين أملهـم بالـسلام ورغـد العيش، متتبعين حلـم الأسـلاف والأجـداد، يبحثـون عـن الجنـة، أمـل الاستقرار الدائم والأمن الوفير. وها هو جيش الظـلام، جيش الـضجة والإزعاج لا يتوقف في إخـافتهم، ويـدفعهم أكثـر لجنـة جـدهم آدم، وكأنهم - وكأن جميع البشر- قد شعروا بالجنة حينما كانوا في صلب آدم، وأحسوا بمرارة الخروج، وشعروا بالمصائب والحـروب والـدمار، فاشتاقوا للفردوس، وتحمَّسوا للأرض الموعودة، و ارتعبـوا مـن لحـاق الظلام بهم، والجحيم يبحث عنهم، وهم يبحثون عن الجنة.

وهكذا مرّت الليال والأيـام وهـم يـسيرون، وفـي المـسير تـزوج "رايجن" "زاهرا"، وفرح العموم واحتفـل، فـ"رايجـن" بطـل مـن أبطـال القبيلة، وسيشاهدون ذرية البطل.

وفي المـسير حـدثت أحـداث غيـر مهمـة، ولكـن أهـم حـدث صادفه "الوالكوتيون" هـو اقتـرابهم مـن إرضٍ مـسكونة، وقـد تعرضـوا لمهاجمة سكان تلك الأرض في البدايـة، ولكـن قـوة "الوالكـوتيين" و إظهارهم السلم جعلهم يتقبلون الأمر الواقع والمسالمة مع المهـاجرين، فاستقبلت القبيلةُ "الوالكوتيين" ، وقد بيَن - بطريقة مـا- "الوالكوتيـون" أنهم لم يأتوا غازين أو سـارقين أو نحـو ذلـك، كـل مـا يريدونـه هـو

الراحة ليلة واحدة، ثم العبور، وأخبروهم بأنهم لن يمدوا أيـديهم إلـى خيراتهم، باستثناء ماء النهر، ورضي السكان بذلك. وعنـد الإقامـة تبـين أن هذه القبيلـة سـليلة أدب وعلـم، قـد صـادفت ذلـك "زاهـرا" عنـدما تعرفت على فتاتين من سكان المكان وأخرجـت الفتاتـان كتبـاً متعلقـة بالتاريخ والفيزياء، ولكن "زاهرا" لـم تكـن تجيـد قـراءة تلـك الكتـب، فتعلمت الأحرف بمساعدة الفتاتين خلال فترة الإقامة، وأخذت بعـض الكتب المتكررة من الفتـاتين هديـةً، وكتـاب تعلـيم للقـراءة، وأكمـل الركب رحيله.

ومع الوقت تعلمت "زاهرا" القـراءة، وزادت إلـى لغتهـا الأصـلية ولغة "الوالكوتيين" لغة ثالثة، بل قد تكون هي الانجليزية الفصحى غير انجليزية آل "والكوت" التي تعرضت للتغير ودخول ألفاظ أجنبية عدة أغلبها ألمانية، وبدأت "زاهرا" تقرأ كتاباً في التاريخ القديم، هـو كتـاب هيرودوتس.

أكمل "الوالكوتيون" المسير، التي بـدأت تـصبح أكثـر صـعوبة شيئاً فـشيئاً، وأصـيب بعـضهم بالأوبئـة، وقتـل بعـضهم مـن قِبـل قطـاع الطرق، أو هجمات الحيوانات القاتلة والسامة، وقل عـددهم، وقـلَّ مع ذلك إيمانهم، وبدا عليهم السخط وظهر أمام أعين دعاة الإيمـان بكـل

وضوح، دعاة الإيمان الذين أقنعوا من رحل بالرحيل عن مسكنهم. استسلم بعضهم فترك القبيلة ورغب في العودة، ولكن الممتحنة قلوبهم الباقون على الإيمان أكملوا الهجرة، الهجرة التي ضاعوا فيها بسبب تعدد أفرع النهر، فقد كانوا يتبعون طريقا واحدا، والآن أصبح أمامهم عدة طرق!

تاه الأدلاءُ، فأصبحوا بتيهٍ كتيْه موسى وبني إسرائيل، يبحثون عن الأرض الموعودة، ويلحقهم فرعونُ وجنوده، ونال منهم القحط، فتحولوا إلى قطاع طرق، وغزاة سارقين، يبحثون عن أي موردٍ سواء أكان مملوكا لقبيلة ما أو لا، فيحتلونها ويغزونها، وتمر الأيام والأحوال تصبح أكثر صعوبة ، أين الطريق؟؟

يتولى عمّ "لي" زعامة التائهين، ومنصب "موسى" ، وذرية"والكوت" أصبحوا معدودين، وعددهم لا يخول لمهاجمة القبائل أو الطرق أو القيام بغزوة، وأصبح موردهم الوحيد هو الصيد والالتقاط، العادة القديمة للبقاء، ولكن الصيد لا يصيب في العديد من المرات، والفواكه والخضار لم تكن متوفرة في الأراضي التي صادفتهم. فدخل اليأس صدورهم، وتمنوا لو أنهم كانوا كافرين! وهنا نهض الزعيم، المناضل ليخطب في قومه ويحاورهم لعله يبقيهم على

الأمل، الأمل الذي يجعلهم يعملون على الأقل من أجل الحياة، لأن اليأس والسقوط يعني الموت والاندثار. قام الزعيم وقال:

(( أبنائي، من منا لا يطرأ عليه هذا التساؤل: وهو لماذا تنال البلايا والصعوبات المؤمنين ؟ والكافرون دائما في نعيم؟ من منا لا يعترض على قدر المؤمنين؟! أو على الأقل مر عليه يوم أبدى فيه هذا التساؤل وهذا الاعتراض؟

لكنني دائماً كنت أسأل نفسي بعد هذا السؤال: هل الكفار فعلاً يعيشون في رفاهية وسلام؟ وإن كانوا كذلك فهل نعيمهم هذا دائم؟ وهل الصعوبات -التي نمر بها وتعترضنا أثناء طريق النعيم- ذات أمد طويل ولا ينتهي عهدها؟ إن أخوتنا الذين تركونا ولم يأتوا معنا خُدعوا بدوام نعمتهم في ذلك المكان، وهو كغيره من الأماكن التي سكناها من قبل أو سكنها الأجداد، فالهجرة والترحال من طينتنا ولم يكن بلاءاً من السماء علينا، إنما البلاء قادم لمن جلس في مكانه وقعد مؤملا بأن موارد الصيد والنباتات ستكون باقية، إنما الصعوبة ستكون من نصيبهم عندما يغزوهم الظلام بجيشه، هم تشبثوا بزينة مؤقتة وقد خدعتهم أعينهم وغاب عنهم التفكير، فهم رأوا الفاكهة ولحوم

الغزلان والأمن الظاهر، ولـم يفكـروا هـل هـذه الخيـرات باقيـة؟ وهـل الأمن خالد؟

جيش الظلام والذي طالما تحدث عنه آباؤنا وأجدادنا - بأسماء مختلفـة- قـادم إلـيهم، وسـيأتي وقـت لا وقـت فيـه للهـرب مـن كيـد الشيطان وجنوده، فالرحيل عن ذلك المكان كان أمراً محمـوداً، وهربـاً من الموت، وهذا القرار تبنيتموه كلكم وقد اتخذتموه وانتم في كامل قواكم العقلية.

أما الآن فـأنتم جـوعى وتعبـون، وهـذه الأمـور إن غلبـت رباطـة جأشكم فستحجب عنكم القوة العقلية، وتكون كـل اتهامـاتكم وكـل كلامكم ومطالبكم عاطفية، والعاطفة لم تُصِبْ بقرارٍ يوماً، إلا بحظٍّ أو بمساندة من العقل.

قـد تركنـا النعـيم الزائـل ونحـن نبحـث عـن النعـيم الـدائم، والكافرون انخدعوا برونق النعيم في مكانهم ولم يفكروا فيمـا أصـاب الأجداد من قبل، من انتهاء الموارد ونتاج الأرض الناضبة، ولم يفكروا بالبديل الناجح. نعم لم نكن نقـول بـأن هجرتنـا هـذه بحثـا عـن النعـيم والفردوس لن تعترض المصاعب والبلايـا، إنمـا الـبلاء ميـزة المـؤمنين وميزة المغامرين الطامحين، وعلامة الأبطال، وهـل يوجـد بطـل أو أي

شخص نال شيئاً عظيما من دون جهد وصعوبة؟ ودون صبر وتصابر حتى أهلك الصبرُ فرائصَه وتبرَّء منه؟ ولكن ماذا كانت النتيجة؟

أبنائي وإخواني، كلما كان صعود الجبل أصعب فهذا يعني أننا نتسلق القمة الأعلى، فها نحن نبتلي بالبلايا الصعبة فاعلموا بأن القمة أو النتيجة لابد وأن تكون عالية الشرف والفائدة، فالصبر الصبر.

لازلنا نتباحث مع الأدلاء وندرس موضوع التيه، ونحاول جد المحاولة لكي لا تذهب جهود الذين ماتوا و توفوا بالطريق هباءً منثورا ، لا نريد أن نجعل موتهم بلا فائدة وبلا معنى، لا ولكنهم ماتوا من أجلنا، فردوا لهم الجميل بأن يكون موتهم دافعا للتقدم نحو الأمام، لا للاستسلام والتراجع. اجعلوهم شهداء ولا تجعلونهم أغبياء، فالأمر بيدكم، وان أردتم الرجوع فهل دلنا أحد على طريق الرجوع؟))

عجيبة هذه الكلمات، وكأنها تنطبق على تصور المؤمنين في كل دين، يعالجون مُر عيشهم بهذه الكلمات الحلوة، فيتكيفون تكيفا أقوى، فتكون المصائب والبلايا وقودا للسير للأمام، وكأن الإيمان لا يكون إلا بصعوبة العيش، والكفر يأتي مع الرغد وبعده، وصدق من قال (إن الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر).

وهكـذا كانـت هـذه الكلمـات وقـودا تـزود بـه "الوالكوتيـون" ليقوموا بحماس مرة أخرى، ويتجدد إيمانهم.

وفي إحدى ليالي التيـه، عانـدت جفـون "رايجـن" مـن أن تغلـق وتنام، وهو يتأمـل النجـوم، سـارحا متفكـرا، وفـي نهـضة مـن نهـضات "زاهرا" وجدته مفكراً، فأُثير فضولها ثم سألته: بماذا تفكر؟

"رايجن" : بكلمات الزعيم التـي قالهـا قبـل أيـام، وقـد تـذكرت أحد الموتى وإني متحسف عليهم، فقد كان ذا إيمان قوي.

"زاهرا" بعد لحظة من التفكير: .. قـد قـرأت فـي إحـدى الكتـب التي أخذناها من سكان القرية التي صادفناها في كذا وكذا ، إن هنـاك شعب قد تاه في الصحراء فترة وهم هاربون من ملكٍ جبار، وقـد ابتلـوا أيّما ابتلاء أثناء تيههم فكفروا بما كـانوا يؤمنـون بـه، فقـام زعـيم لهـم يـدعى "موسـى" بأعمـال اعجازيـة لاسـتعادة إيمـانهم، ولكـنهم كـانوا أصحاب نفوس عنيدة، حتى مات منـهم مـن مـات وهـم يبحثـون عـن الجنة الموعودة، بـل ومـات "موسـى" نفـسه وهـو الـذي كـان أكثـرهم إيماناً وأقواهم في ذلك.

"رايجن" يلتفت إلـى زوجتـه الحبيبـة مبـدياً خوفـه وارتعابـه مـن القصة.

"زاهرا": ولكنهم في النهاية دخلوا الجنة وعاشوا في مملكة الفردوس.

"رايجن" : و "موسى" ؟

"زاهرا" : يقول الكتاب الذي قرأته معلقاً: إن المؤمنين وأئمتهم يعيشون الفردوس في قرارة أنفسهم، و كل همهم وضيقهم أن يروا الكافرين لا يتهنّوا على الأقل في عيشتهم الزائلة، فهم يشعرون بالشفقة على الناس الكافرة. فالإيمان العميق في صدور هؤلاء جعل أصحابه - أي المؤمنين- لا يريدون الجنة المفقودة، إنما يريدونها لغيرهم. كل العناء بالنسبة لهم هو من أجل إخوانهم في الإنسانية، وإسعادهم قدر المستطاع، فروح "موسى" سعدت بخبر وصول قومه الجنة، وفرحت برؤيتهم فرحين، أما على نفسه فلا يحزن مهما نالها من مصائب وبلاء.

تهدؤ نفس "رايجن" بهذا الكلام ثم يقول: أتمنى أن أرواحُ أسلافنا وكلٌّ من ساعدنا لنسير إلى الجنة تكون مطئمنة راضية.

هؤلاء الأئمة وأعلام الإيمان لم يستهدفوا يوماً بأن ينالهم الهناء وحدهم، إن أنانيتهم قد أُزيلت - سواء برياضة طقسية أو قناعة فكرية - حتى أصبحوا " البوديساتفا " وهم بعقيدة البوذيين من انسلخوا من تكرار الحياة بوصولهم مرحلة "النيرفانا" وهي مرحلة نكران الذات

والاتحاد مع "البراهمان" ولكنهم آثروا ألا يدخلوا الجنة وأن يعودوا للحياة لمساعدة إخوانهم الناس لكي يصلوا لمرحلة السعادة الأبدية، هؤلاء لا يهمهم الصلب أو القتل والسبي ولعن اسمهم على المنابر سنوات طوال، لا يهمهم قطع أيديهم أو حرقهم واهانة أنفسهم، لأنهم في قرارة أنفسهم سعداء بعدم تعلقهم بالماديات ونتاجات الأرض، ولكن ضيقهم فقط لكون إخوانهم من الكافرين، الذين يتعلقون بالنعم الزائلة ولا يبحثون عن السعادة الأبدية، فيفدون بأنفسهم وأهليهم وبكل ما يملكون من أجل إسعاد الآخرين، هكذا تكلم المسيح وبوذا والحسين.

وتمر الأيام والليالي وهم في التيه، وفي إحدى خطواتهم الخاطئة، ورب خطأ ينتج خيراً، لقوا قبيلة أخرى هاربة، وقد بدا عليها التعب والجروح، فسألهم "الوالكوتيون": ما بكم؟ ومن فعل بكم هذا؟

الهاربون: جيش العالم السفلي قادم.

"الوالكوتيون" : من أين؟

فأشار الهاربون بإتجاه علم "الوالكوتيون" من أنها جهة الشمال، فعرفوا نصف الطريق.

الهاربون: قد سمعنا بوجود مدينة حصينة في الجنوب (أعلى النهر)، فهل أنتم ذاهبون إليها؟

"الوالكوتيون": نعم ، ولكنا لا ندل الطريق.

هنا أخرج بعض الهاربين بعض الخرائط القديمة - بالنسبة لهم- لنهر النيل وأفرعه، لعلهم أخذوها من خراب عاصمة الخرطوم وإحدى مكاتبها، وشرح آخر شروحاتٍ في علم الفلك، فاستنتجوا بأن المدينة تقع في المكان الكذائي، وأن الطريق من هنا، وأشاروا بوجهة. وعندها ضج "الوالكوتيون" الرحل معبرين عن فرحتهم، وأن الفرج قد قدم وقد خرجوا من التيه، وانضم الهاربون إلى المهاجرين.

وكلما مرت الأيام جاءهم عدد من الهاربين من الجيش الشرير، العظيم الغريب، و تزيد الروايات في وصفهم ويزيد معه الرعب والخوف منه. ما هذا الجيش الذي يقذف النار ويحمل الصخور الضخمة بيده ويرميها على الناس، و رجالهم من حديد يركضون على أربعة أرجل؟؟ يهزون الأرض هزاً عندما يمشون.

جيش معه التنانين والعمالقة، جيش المخلوقات الغريبة، مبيد الإنسانية والبشرية، ياجوج وماجوج، الشيطان وجنوده .. وغيرها من أوصافٍ مرعبة.

وكلما اقترب المهاجرون من الجنوب، ازدادت مصادفة القبائل الهاربة، وبدا وكأن الكل يهرب من جيش الظلام، و اختفت العداوة بين القبائل الحجرية، فصار همها الوحيد الوصول إلى المدينة المحصنة، والهرب من جيوش الجحيم، فانضموا لبعضهم البعض وتعاونوا، وأصبح عدد المهاجرين كبيراً مع الوقت.

وفي إحدى الأيام يدخلون مدينة قديمة كبيرة، فيها بقايا المباني العالية وحطام الآلات (لعل المدينة هي "جوبا" في جنوب السودان) والسكينة تغزو الجو، ولكن بسكوتها تتحدث عن أحداث حدثت هنا، فجثث هامدة، وآثار قتل ونزاع بين السكان، تقول المدينة: بأن مقتلة قامت هنا، كانت مدينة أشباح. تاريخها القريب من المهاجرين "الوالكوتيين" يقول: بأنهم تنازعوا فيما بينهم من أجل البقاء، ولكن لم يبقَ أحد، حاول الأصلح أن يعيش على حساب الأضعف، ولكن قوته تمادت حتى قضت على نفسه، قتل أهله وإخوانه من أجل الطعام القليل، فهل صدقت مقولة أن الغرائز الإنسانية أكثر نفوذاً في سلوكيات الإنسان من قيمه؟ هل القيم ما هي ألا تغطية شرعية لغرائز الإنسان القوي؟ فطرتنا في وقت السلم ترفض هذه المقولات، ولكن هل في فترة الوغى والصعاب والمواجهة ستطرد حقا

من اتبع كلام "راسل" ومن قال بهذه المقولات الدنيئة وتكون على موقفها؟! كلنا مثاليون وقت الهدوء، ولكن وقت الضيق الشديد فكلنا "ميكيافيليون" ومن أبناء المدرسة الواقعية في السياسة، وما السياسة إلا دراسة القوة في المجتمع، كلنا نبحث عن البقاء، ومن كان مثاليا وقت الصعاب مات وقضي عليه، فيبقى الأقوياء - البقاء للأقوى كما يقول "دارون"- طبقة مالكة مسيطرة ثم يسطرون الأخلاقيات والدين - كما يقول "ماركس"- ليبرروا أفعالهم وضرائبهم واستعبادهم للطبقة الكادحة، ابحث عن أغلب الممالك التي قامت تجد أن المؤسس أو والده أو جده غالبا ما يكون شخصا تم تقديسه، من عصر اتحاد الكهانة بالمُلك و ألوهية الملك: ملوك أور وكريت ومصر وميسناي (أبطال طروادة)، ورومولوس وساسان وبني العباس، كل هؤلاء كانوا ملوكا مؤلهة أوكهنة مطهرة؟ وتمر الأيام ولظروف خاصة تحل الأعراف والعادات في تعظيم السلطان و الملك و رئيس الجمهورية والأمير..وغيرها من القاب السلطة، وتخلق لنا عادات سواء مكتوبة أو غير مكتوبة فتجعل المساس بذات الأمير أو الرئيس مساسا في الأمة، وموجبا للطرد والنفي وسحب الجنسية، بل وأصبح من يبدي رأياً بخلاف المعظم إنساناً لا يحمل روح الوطنية، وفاسقاً وكافراً ..الخ هذا

من مميزات العالم الثالث، ومن خرج عن هذه الأمور وكفر بها خرج من العالم الثالث!

هذه هي الأيام والمشاهد تعلم "رايجن" وأشباهه، هكذا تدربه على الأنانية، ولكن مشاهدة الغير وحب الذات لم توصله بعد إلى اتهام خيرة "الوالكوتيين"، والنظر إليهم كما ينظر إلى جميع الناس، فبقي يعز المهاجرين ويعتبرهم أقدس الناس، وغيرهم لا. لا يزال "رايجن" رواقياً بعض الشيء ولكنه شيئاً فشيئاً ينتقل إلى الابيقورية القورنائية، كما يرى ديورانت، بأن الناس والأمم ككل يبدؤون رواقيين وينتهون ابيقوريين، وهذا يكون لما يشهدونه من أنانية غيرهم.

وتمر الأيام ويقترب "الوالكوتيون" من المدينة، و وصلوا إلى مشارف البحر (بحيرة فكتوريا؟)، وهناك - كما قال أحد الادلاء- تقبع المدينة الموعودة، وكل أمال المهاجرين في مثالية المدينة، وكما أشرنا في كيفية خلق الجنة في الأذهان ودور الخيال لكي يعوض عن مآسي الحياة في تصوير الفردوس الموعود، اقتربوا من المدينة، وابتعدوا في ذهنهم عن الواقع، كل على ليلاه يغني ويتخيل المدينة.

يبعث المهاجرون فرقة استطلاع لتزويدهم بالأخبار الاحتياطية حول المدينة، وفي نفس فترة انتظارهم للأخبار، جاءتهم أخبار من

الخلف، يحملها أفراد "والكوتيين" !! مع بقايا متبقية من قبائل هاربة، ثلاثة أفراد من "الوالكوتيين" الذين بقوا في مكانهم ولم يبرحوه كفرا بفكرة المؤمنين، يخبرون "الوالكوتيين" المهاجرين، أن توقعهم كان صحيحا، وجيش الشيطان غزا الأرض، واستولى على الماء واليابس، وتخبر البقايا المتبقية أفراد قبيلتهم بجزاء الكفار، وماذا حل بهم؟ عناقيد الغضب المدمرة بجحافلها الحديدية والنارية، غزت الناس، وهي قادمة بنفس الاتجاه، أنه طوفان، اجتياح، أناس لم نشاهد أمثالهم من قبل، هذا إن صح إطلاق لفظة أناس عليهم.

عمّ الحزن على قلوب المؤمنين المهاجرين، فكل منهم بدأ يتذكر صديقه وحبيبه ويتذكر المواقف الجميلة، فبكى من بكى، وبازدياد الحزن والأسى كان يزداد الرعب والخوف، وهزهزة الأرجل انتظاراً لأخبار المقدمة الاستطلاعية بأحر من الجمر، الموت قادم، أين خبر الجنة؟

ولكن الفرقة تأخرت أكثر من الوقت المحدد والمتوقع من رحلة قد تطول يوماً أو يومين بالكثير! ماذا حدث؟ يجتمع وجهاء القبيلة وخبراء المهاجرين، ماذا نفعل؟

قال أحدهم: نرسل فرقة أخرى لعل الأولى أصابها حادث.

قال الثاني: أليس عندنا الأدلاء ونعلم باتجاه المسير؟ لماذا لا نكمل الهجرة وندخل بدلاً من تأخير الوقت وتضييعه؟

يؤيده آخر: نعم فإن المنطقة لا يمكن أن تكون عدائية ولا يمكن أن ترفض استقبالنا لأن أهلها طيبون سكان جنة الله الموعودة.

لعل غريزة الخوف هي التي خلقت لهم هذه الأسطورة، أو إيمانهم البريء الزائد، فقرروا إكمال المسير دون الاعتماد على رجال الاستطلاع في المقدمة، و ساروا إلى الأمام، وخلفهم الموت.

و فعلاً وصلوا، وشاهدوا السور المبني -وهو بالنسبة لهم سور عظيم- و بمجرد ظهور مباني المدينة وسورها أمام ناظرهم هللوا وأطلقوا صفيرهم وتصفيقهم وعبروا عن فرحتهم الشديدة، و كل منهم يبارك آخر ويحتضنه والدموع تنهمر، وهل من السهولة على الفرد أن يمنع دموعه عندما يشاهد جهده الجهيد والطويل والمرير يتوج بالغنيمة العظيمة؟ وبعد خطوات سريعة للمهاجرين نحو المدينة يصادفهم الخطب الجلل والصدمة التي لم تكن متوقعة بتاتاً، وهو رؤيتهم للجماعة المرسلة للاستطلاع وهي راجعة عليها مظاهر الخيبة، ينادونهم ويسألونهم: ما الخطب؟

تجيب فرقة الاستطلاع: سكان المدينة رفضوا استقبالنا وأظهروا العداوة.

لا أحد يستوعب الكلام، ويظهر عليه نكران هذا الخبر، لا تستطيع النفس أبداً أن ترى نفسها فاشلة بعد الجهد الجهيد، فتضع التفاسير المناسبة لمعتقدات سابقة! نحو التفسير الذي يقول: إن فرقة الاستطلاع مخطئة في نقل الخبر، كاذبة، وآخر يقول: إن ذنوبنا هي التي منعتنا دخول الجنة وأهل الجنة يرفضون استقبالنا، وبين هيص وبيص، يتحدث الزعيم: خيموا الليلة هنا وسأذهب أنا وكبار القوم لمخاطبة أهل المدينة.

تقبلوا الأمر، وهم بذلك يتقبلون الواقع شيئاً فشيئاً، ويهبط طير الخيال والأمل إلى أرض الواقع تدريجياً، ويمرون بما مر به الأجداد من قبل.

يتوجه الزعيم ومعه كبار القوم إلى واجهة المدينة، وبوابة السور، ويصرخون منادين حراس السور، و أهل المدينة، ولكن جواب الحراس كان رماحاً توجه إلى الزعيم وصحبه، يجرح أحد وجهاء المهاجرين، ويستغرب الزعيم، ويؤشر للحراس بأنهم لم يأتوا أعداء، ولكن الحراس لم يفهموا إشاراته، إلا أن الرماح توقفت قليلاً، وظن

الزعيم بأنهم استجابوا لمظهر سلامه، وفُتحت البوابة وإذا بمسلحين بالرماح الخشبية يتوجهون إلى زعيم آل "والكوت" ومن معه، وعلى وجوههم ملامح عابسة، فعرف الزعيم أنهم يريدون الشر، فحاول الهرب ولكن كبر سنه وسن الوجهاء كان عائقاً لذلك، فتم القبض عليهم وأسرهم وجلبهم داخل السور.

وجَمْع المهاجرين كله انصدامٌ، وعاجز عن الحركة، لا يعرف ماذا يفعل؟ فهل يهاجم أهل الجنة ويساعد الزعماء؟ أم يبقون في إظهار السلم؟ وتساءل الجمع: كيف نواجه السور ونقتحمه إذا أردنا الهجوم؟ أو كيف نبارز الحراس وهم برماحهم الخشبية الطويلة ونحن لا نملك إلا العصي والسكاكين وبعض المناجل وأدوات بدائيةً؟؟ ينظر بعضهم إلى بعضٍ باحثين عن موقف من أحدهم يتبناه كإجابة، ولكن لا أحد يتحرك!

بقي الجمع المصدوم والتائه معسكراً بالقرب من المدينة، وهو كذلك إذ تأتيه أخبار جديدة باقتراب جيش الشيطان العظيم، ازداد الخوف، وازدادت الحيرة، لا أحد يقدر على الإجابة فوجهاء القوم المخولين دائما في البحث عن الإجابات السليمة صاروا أسرى عند أهل الجنة!!

قال بعضهم: نهرب إلى وجهة أخرى.

وآخرون: بل نستمر في إظهار السلم لأهل المدينة المحصنة.

وآخرون ساكتون، وبعضهم قال: إن الزعماء لم يقتلوا فلننتظر قليلاً.

واختلف القوم مرة أخرى وانقسم، فارتحل قسم منهم لوجهة مجهولة، واختفوا، وقسم حاول الهجوم على السور ولكن القسم الآخر منعه وحدثت صدامات بين المهاجرين، وآخرون -وكان منهم "رايجن" و"زاهرا"- في صمت عميق.

وهم في تلك الضجة، إذ الأرض تهتز بعنف، وكأن هزة أرضية قد ضربت المنطقة، أسقطت الفخاريات وكسرت الزجاج، بل سقط الرجال والنساء بسبب حركة الأرض، قال أحدهم متسائلاً: هزة أرضية؟ فأجابه الذي عنده معرفة سابقة: إنها أقدام الشياطين!!

اقترب جيش الظلام وأصوات الأبواق الحربية والطبول العسكرية تسمع عن بعد أميال من قوتها وعنفوان رجالها، إنها أصوات الوحوش الكاسرة، إنها أصوات العالم الآخر، عالم الظلمات.

فهرب من هرب، وبقي من بقي يترنح من جراء الاهتزاز الأرضي، ولما استراح الشيطان وأزلامه، وتوقفت الأرض، كان

المهاجرون في حيرة أكبر، وعادت الضجة التي كانوا فيها، وهم كذلك إذ بطليعة تخرج من باب سور المدينة تتوجه إلى المهاجرين، وقد هم بعض المهاجرين للهجوم على الطليعة ورجال المدينة ولكن القسم الصابر المسالم منعهم وقالوا لننظر ما يريدون؟

فبينت الطليعة أنها جاءت بخبر الترحيب، وإن باب المدينة مفتوح لكم: هيا أسرعوا بالدخول، فسعد الصابرون ودخلوا المدينة المحصنة، دخلوا الجنة أخيراً!

# الفصل الرابع

## الفصل الرابع:

# جيش الظلام

ويدخل المؤمنون الجنة أفواجاً، ومظاهر السعادة تتربع على ملامحهم وهم يعبرون الباب الكبير، وينظرون حولهم وإذا بهم يرونها مدينة عظيمة - بالنسبة لهم، أما بالنسبة لنا فهي بقايا عاصمة اوغندا- ، فيها المباني العالية و النظام الجميل والناس في نشاط رتيب، يستقبلهم أهل المدينة وفي قلوبهم ريبة، وابتسامة مجاملة للضيوف، فهم في نظرهم الغرباء الذين سيعيشون كطفيليات في مجتمعهم المتقدم.

كانت المدينة عامرة بالمباني المتبقية من العصر القديم، جوها أفضل من باقي الأجواء، فيها نظام حكم متطور يماثل تقسيم "كليسينيز" للمجتمع الأثيني، فهناك الساحل وهناك السهل وسط المدينة و سكان التلال، وهناك شوارع يسكنها الأجانب واللاجئين، ومكان جديد خصص للهاربين من الطوفان الأسود.

يسير الجمع وكله توقع بالخير والأمان، فهذه المدينة لن يستطع الجيش المظلم أن يغزوها، وسورها الكبير لن يدكه ياجوج وماجوج أبدا، والناس كانوا من مختلف الأجناس والأصول، ففيهم الأبيض والأسود والأصفر وفيهم الطويل والقصير والمتوسط ..إلى آخره من اختلافات بيولوجية، يظهر أنهم من عدة سلالات هربت من الشمال المتثلج إلى الجنوب الأدفئ نسبيا، ومن غابات الوحوش والسباع إلى المدينة البشرية، ومن ضياع الترحال ومرحلة البداوة وعدم الاستقرار إلى التوطن الدائم والاستقرار ومرحلة المدينة الثابتة، والتي ركز فيها الناس كل مجهوداتهم التكنولوجية والثقافية، فباتت بالفعل المدينة الأكثر تطوراً من باقي الأماكن البشرية في هذا الوقت المتوتر.

وكانت الموارد الطبيعية في المدينة متوفرة، وعمل البحر والنهر والجبل والغاب على خلق تكنولوجيات وثقافات متكيفة مع كل ذلك التنوع، فكانت التجارة الداخلية كافية -خصوصاً ان ذلك الوقت لا يركز المرء إلا على الأساسيات لعيشه- ولعل القناعة التي انبثقت من تربية الترحال الطويل والمتعب وفقر الموارد خارج المدينة وعدم استغلالها عملت على بقاء مستوى الطمع والرغبة في الجماليات

منحصر في الأساسيات من مأكل ومشرب وملبس ومكان ينام المرء فيه.

وكان في المدينة قوانين تحكم الناس في تجارتهم وسياستهم وعلاقاتهم الاجتماعية والأسرية، وكان النظام السياسي ديمقراطياً، وكانت لديهم الأساطير أيضاً، ومن تلك الأساطير التي تعرف عليها "الوالكوتيون" هي أن الجنس الأسود هو الأفضل في حكم المدينة، بحجة قصة تقول بأن الجنس الأسود هو من بني المدينة وإن الأنظمة والقوانين كانت من ابتداع أجداد وأسلاف السود في المدينة، وأنهم هم الأصليون وهم الورثة الطبيعيون للمدينة، ومع تطور المجتمع، كان الملك وهو من أحفاد السلالة الاوغاندية القديمة يحكم رسمياً البلاد، وبجانب الملك مجلس مختلط الأنساب يراعي مصلحة كل فئة وقبيلة وحزب! نعم أحزاب: الساحل والسهل والجبل، تيمناً بأثينا القديمة قبل حكم الطاغية "بيزستراتوس"، كانت هذه الأحزاب هي التي تتصارع في المجلس، مع مجلس "اريوباجوسي" حكر للأشراف السود، السكان الأصليين للمدينة، وهناك أيضاً "الهيلية" وهي المحاكم.

هذه كانت المدينة: نشيطة متطورة، وكانت حصينة ومنغلقة على نفسها لا تستقبل أحداً إلا لمسوغ يقنع المجلس الشعبي

(الجمعيــة)، وهــذا يحــدث نــادراً، فكيــف اســتقبل هــؤلاء إذن "الوالكوتيين" والمهاجرين؟

بعد تحديد مكاناً مخصصاً من قبل أهل الفردوس - كما أُطلق عليهم من قبل المهاجرين - للـ"والكوتيين"، استقر المهاجرون في المكان واراحوا ابدانهم يوماً، ثم سرد زعماء المهاجرين الأمر المر لبعض الخاصة وكان منهم "رايجن" ورفاقه الخلص "بشير" و"لي""! وهو أنه بعد أن ضاقت بهم السبل وفشلت معهم المحاولات لإقناع أهل الفردوس اضطروا بأن يحتالوا ويقولوا بأن المهاجرين جيش سوف يعمل لصالح المدينة وللدفاع عنها في حال هجوم جيش الظلام عليها، وأنهم سيرحلون ما أن يرحل الجيش الغازي عن المدينة، وإن هذه الوظيفة إنما هي وحي من قبل الآلهة جاءنا في المنام، لأن بقاء الحضارة والمدنية مرتبط مصيره بحياة هذه المدينة المحصنة! فسكان الفردوس رفضوا الاستقبال، ولكن ارتعابهم من عظمة وهيبة جيش الشيطان جعلهم مضطرين لقبول أي عسكر ينضم إليهم، وهكذا كان استقبال أهل الفردوس لهم لم يكن عن طيب خاطر ومودة إنسانية، بل لمصلحة مؤقتة.

"رايجن" بعد أن عم قلبه الإحباط، ثم تقبله للواقع المر قال : وكيف ستقول للجمع ذلك وهم ينظرون إلى هذه المدينة بأنها الجنة الموعودة والفردوس الخالد؟ كيف ستكون ردة فعلهم؟

الزعيم: لن نخبرهم بالحقيقة على الوجه الدقيق.

تقدم الزعيم واختار مكاناً مناسباً لمخاطبة المهاجرين و "الوالكوتيين" ثم قال:

((أيها الأحبة، يعمني ويعمُّ باقي الزعماء الفرح في لقياكم مرة أخرى، ونحن نعتبر هذه المدينة الجنة المحببة إلينا، لا المسكن الرغد، فأهلنا وأصحابنا الذين أحببناهم وعشنا الحياة معهم هم الجنة، فإني راض بأي مكان اجتمع فيه مع أحبائي، ولو كان ذلك في الجحيم، ولكن رضيت الآلهة بأن تجازي صبرنا وتعبنا لكي نتقابل في أحلى بقعة وما أحلى أن نجتمع في جنة بالفعل، فهذا والآلهة أعظم النعم وأجلها.

أبنائي! إخواني! إن المرء في تجارته قد يخسر وقد يربح، و عندما يخسر فإنه من السهل أن يحافظ على الخسارة ويبقى خاسراً، ولكن عندما يربح فجل مهمته هو أن يبقي على ربحه و يحافظ على النعمة، فالمحافظة على النعمة أهم من الحصول على النعمة، وها نحن

قد ربحنا تجارتنا فلزم علينا أن نتقبل المسؤولية في الحفاظ على النعمة، وذلك لمصلحتنا وفي نفس الوقت إظهار الإمتنان لعطف الآلهة وعدلها وفضلها، وهذه المسؤولية هي أشرف مسؤولية، نفدي لها الرخيص والثمين من اجل أن نقول للآلهة: أننا لن نضيِّع تعبنا سدى، وأن وصولنا لمنصب المسؤولية كان جديرا لنا، ولن ننزل عن هذه المكانة أبداً.

أبنائي! إخواني! وها هو جيش الظلام المدمر، اللا إنساني، البربري الهمجي، والذي لا يعرف الرحمة يتوجه إلينا والى نعمتنا الإلهية، يتوجه إلى مدينتنا النعمة هذه، فهل ستتقاعسون عن حمايتها في حال هجومهم عليها؟ فإن هذا نكران للمسؤولية الملقاة علينا ورفس للنعم المسبغة علينا من يد الآلهة الكريمة جزاء التعب الطويل والجهد الجهيد، فهل تريدون أن نلغي كل تلك الجهود المبذولة منا أثناء الهجرة؟ هل تريدون أن يذهب عناء الأسلاف والأحباب هباءاً منثوراً؟ هل ترضون بأن تلعنكم الأرواح المقدسة لتُطردوا من الجنة التي طالما حلمتم بها؟

بالطبع لا، فلذا سنكون عند حسن ظن الآلهة والارواح الطاهرة! وسنكون على أتمِّ الاستعداد للدفاع عن حقنا ونعمتنا وفي عدم التنازل

عـن جهودنـا وتعبنـا الطويـل المريـر، سـنكون علـى قـدر المـسؤولية، وسنكون جند الله في جنته الخالدة.))

وهنا تنفجر صرخات المهاجرين الحماسـية، ويهتفـون الهتافـات وكأنهم جنود الهـون الـشجعان أو رجـال اسـبارطة القـساة، و"رايجـن" ينظر للجموع وفي عينيه الشفقة، ولكنه أقنـع نفـسه بالمهمـة المرحليـة، فلا بد من التـصدي لجنـود الظـلام، لأنـه فـي حـال مهاجمتـه للمدينـة والقضاء عليها، فإن ذلك يعني القضاء على الإنسانية كلها، ولـن تكـون هناك منطقة في الأرض يمكنها أن تصد الطوفان مـا لـم تـتصدى هـذه المدينة الأقوى لهذا الفيضان العظيم.

تقبـل المهـاجرون المـسؤولية، ولكـنهم يظنـون أنهـم قـد تقبلـوا الدفاع عن مدينتهم هم، جنتهم الخالدة الأبدية، ولا يعلمـون أنهـم قـد تقبلوا الارتزاق والـدفاع عـن سـكان المدينـة مؤقتـا، مـن ثـم الرحيـل. مساكين ومسكين هو الإنسان، الذي دائما يتوقع الأفضل لحياته وحيـاة البشرية عند اسـتطلاع الـرأي العـام، ولكنـه يجـد مـع الأيـام إن الـسوء يزداد، وتزداد معه المجاعة والحرب والأمراض والدمار، ولكنه بعنـاده يبقى يأمـل بالجنـان القادمـة، يـرى الأب والأم فـي طفلهمـا المهنـدس والدكتور والكاتب المشهور المقدس والمطهر من الـذنوب والـدنس،

يأملان فيه مستقبلا باهرا سوف يزيل عنهما ثقل الحياة ويسهل إشغال الوالدين، ولكنهما ينصدمان فيه مع الأيام فيزيد العبء عليهما فيطلب منهما ضريبة الحياة من مأكل وملبس وحضانة ثم رسوم الدراسة مرورا بطلب السيارة، وكلما حلَّت مصيبة فيه أو أصابه نقص أو عيب، حاولا الترقيع و التبرير بأساطير، وإن عجزا عن ذلك سردا قصة الأمل، واعتقدا بأنها أزمة وتعدي، وإن شاء الله كل ذلك سيزول عندما يتوظف، ولكنه ما إن توظف أخذ قرضاً ودخل مشروعاً تجارياً فاشلاً أو ما شابه ليزيد العبء على الآباء.

ومثله الشعب الفرنسي الذي قال: إن ما بعد الثورة خير وأنعم، فإذا به يجد نفسه محاصراً من قبل كل القوى الأوربية التي تريد الحفاظ على الماضي، فتهزم الثورة الفرنسية وتعيد أسرة "البوربون" على العرش.

ومع كل بلية يقول الإنسان: هذا ابتلاء وما بعده تأتي الجنة، ثم تقوم مصيبة أخرى فيقول هذا ابتلاء وبعد الجنة ..وهلم جرا. عنيد هو الإنسان في توقعاته البريئة، ولا يريد أن يتنازل عن الجنة الموعودة، التي ستأتي، لا بد أن تأتي. رغم كل المؤشرات السيئة والتي لا تبشر أبداً بالخير.

لماذا يستمر الأمل مع كل هذه المؤشرات السلبية؟ هذا أمر فطري وقد جُبل الإنسان على حب الخير، وهنا قد نخالف "هوبز" و "يانج تشو" وغيرهم، ولكن أصل الخلاف هو أن من قال إن الإنسان فُطر على الشر ويتعلم الخير يرى بأن الأنانية مطبوعة في الإنسان، والأنانية شر فلذلك كان الشر أصيلا في الإنسان، والذي يخلق الخير هو العقل بتحديد ما هو أصلح، وبذلك يخلق لنا الأخلاق ويجبر الإنسان على تعلمها، ولكنا نرى بأن الإنسان في داخله صراع، بين الأنانية التي تريد أن تزيد عن حدها وبين باقي الفطريات البريئة، فالأنانية في حدها الطبيعي شيء خير، فهي التي تبقي الإنسان حياً، فيأكل ويشرب، وهي التي تسيره إلى الجنة والسعادة، فيبحث كل الناس بفطرتهم عن السعادة، وهل هذا غير الأنانية؟ ولكن الأنانية وحب الخير و باقي الفطريات كلها على خط واحد، فان زادت الأنانية عن حدّها وأرادت كل الخير لها وعلى حساب الغير فهنا ستكون شرا، فالأنانية وباقي الفطريات في معدلها الأوسط خير وكذلك باقي الفطريات، فالإنسان خيرٌ بطبعه، ولكن عندما يفشل في داخله على أن يكبح طغيان الأنانية، (وأكثر عامل يساعد على ذلك هو الجهل والغفلة)، فانه سيكون شراً، فالصراع الداخلي هو المتأصل والمتطبع،

وباقي الظروف الخارجية مساعدة، ويدخل العقل والقناعة والذكاء كقادة لحفظ النظام الداخلي، والذي يريد تغليب شيء على آخر أو حفظ الأماكن والمستوى الطبيعي نسميه المريد، وهو الإرادة الحرة، وسيفها العلم والتعلم، والفَرس الذي تركبه هو الفضول الفطري.

فالإنسان أناني بطبعه، ولكن هذه الأنانية إن تخطت مستواها كانت شرا ودمارا على البشر، وتطبع على الشر، والصراع في داخله أصيل لا مفر منه، والذي يحدد مصير الصراع هو الإرادة الحرة في كل إنسان.

سلاح هذه الإرادة العلم، وموته الجهل، فلو تعلم الإنسان المساعي والظروف وهو محافظ على مستوى الأنانية في غرائزه ولم يجعل الأنانية تسيطر على كل الإنسان وانفعالاته لعرَف الطريق القويم، وحدد بذكائه طريق الجنة الحقيقية، والا فبغبائه سوف يذهب إلى الجحيم.

لو تأمل الإنسان وركز في سيرة حياته الماضية لوجد دون عناء بان كل أخطائه كانت مقدورة على أن لا تُرتكب من قبله، وكان قادرا تمام القدرة على الترك، فكم من خطأ لو لم يكن الإنسان غبياً فيه لما حدث، و لو لم يساير الناس في جهالتهم لما حدث، مرجع كل خطأ

يخطئه هو الجهل والغباء، وما الغباء إلا إرادة عدم العلم والتفكير، فلكي يخرج الإنسان من مشاكله كان يجب عليه أن يبحث ويفكر ويتأمل منسلخا من الأنانية اللاغية، لكي يعلم العلم السليم، والذي به يتجنب الأخطاء والمسير إلى جهنم، فبدلاً من لعن القدر وشتم الآلهة والكفر بها انتقاما، عليه أن يعلم بأن كل الأخطاء في حياته كان سببها جهله وغباءه، فبدلاً من لعن الظلام من الأفضل أن تشعل شمعة، وبدلاً من سب الماضي علينا أن نفكر للمستقبل وألا نخطئ أخطاء متكررة، ومعرفة ما هو الخير وما هو الشر له كلام مخصص، فكم من خير نراه ولكنه ليس بخير، ونحكم بأننا فشلنا وأن دنيانا مصيبة لعدم الحصول على ذلك الذي هو في الحقيقة ليس بخير؟ والعكس، وهذا مرده أيضاً الجهل، الجهل عدو الإنسان والإنسان عدو ما يجهل.

وهذه الأنانية المفرطة والجهل مرد إحباط الأمل، والفطرة السليمة والأنانية الخيرة الطبيعية هي مرد بقائه مستمراً، فالصراع كل الصراع يقبع داخل قلب الإنسان وعقله.

سيبقى الأمل، لدى المهاجرين، والأمل معشش في قلوبهم، ولكن الآن نخرج من قلوبهم لنأتي بخبر المستطلعين، والهاربين،

جيش الغرباء على مشارف المنطقة، وجاءت الهزة الأرضية مصداقاً لما جاء في الخبر.

توجه العديد من الناس إلى أعلى السور لمشاهدة الوحوش الضارية والمخلوقات الغربية، الشياطين الذين جاؤوا لمحو الإنسانية من على وجه الأرض، والضبابُ يعيق الرؤية قليلاً، ويخيم الهدوء من طرف سكان المدينة بعد ضجتهم، وهم يترقبون أشكال الجيش الجرار، والذي جاءت هيبته قبل أن يأتي ، بسبب الأخبار.

أصواتُ أقدام الجيش تقترب والأرض تهتز من قوتهم وعددهم الضخم، وهكذا تظهر الرايات والأعلام أولاً، ثم تبرز من بعيد الجحافل والكتائب، ومعها أبواق الحرب، وتلمع خوذهم ودروعهم الحديدية! ومعهم آلات ضخمة هي المجانيق وأدوات الحصار، تصورها الناس -في العصر الحجري الجديد (أي الذي في المستقبل بالنسبة إلينا)- تنانين و وحوشا ومخلوقات غريبة، هتافاتهم ترعب الأسود الحقيقية وتجبرها على النزول عن عرشها لهؤلاء الفرسان والمشاة.

جيش ضخم، بعتاد حرب متطور بالنسبة للعصر الحجري، جيش منظم مرتب على شكل صفوف وجماعات، كل جماعة تختلف عن

الأخرى من حيث اللبس الحربي واللغة والشكل والاعلام، كانت الرماح طويلة -أطول بكثير من الرماح الخشبية- ذات رؤوس فولاذية حادة، والرايات كثيرة، كان المنظر بحق يرعش الأجساد، ويخيف كل مخلوقات الأرض، يتوسط الجيش قائدٌ شامخ مهيب، وكأنه من الجبابرة بل هو فعلاً جبار عظيم، لباسه الذهب والفضة المزخرف، وكذلك فرسه، صدره بارز مرتفع كجبال "همالايا" والريش الزاهي على خوذته الحديدية كأنها صقور تستعد للإنقضاض على الفرائس، وكان الأكثر هيبة من كل ذلك ومن عموم الجيش كله، نظرات القائد، نظرات نسر يرتقب.نظرات تتجمع فيها الخبرة والثقة والعزة العالية، وكأنه "آريس" إله الحرب ومعه جيش السماء الغاضب.

يقف الجيش الذي يبلغ عشرات الآلاف،بل قد يكون مئات الآلاف، فمن لديه الوقت لكي يعد الجيش الضخم في زمن يعد المائة رجل جيشاً عرمرماً، يقف الجيش الهائل وكأنه من كوكب آخر، يريد غزو الأرض، ومظهره كله لا يدل فقط على أنه يستطيع الغزو، بل ويستطيع أن يمزق الأرض مرات ومرات قبل أن يسحق أي مقاومة بشرية. مع موسيقاه الحربية موسيقى تعزف في صدور الأعداء

سمفونيات الرعب. يقف الجيش بعيداً نسبياً عن سور المدينة، وكل المشاهدين يعيشون الرعب والانبهار: ما هذا؟ ما هذا الجيش العظيم؟

تتقدم طليعة عليها الريش يتراقص - (دليل على أنها على قدر من الشجاعة بحيث إذا طلبتها في المعركة تعرفها من الريش الذي على الخوذة الملتف حولها عمامة، أي أن الريشة في المعركة كأنها تقول: أنا فلان فتعال يا من تريدني)- وراية مزخرفة عجيبة وهم على الخيول المزينة بأبهى الزينات. تتقدم وتقترب من بوابة السور، ثم يهتف احدهم صارخا بلغة غريبة لم يفهمها سكانُ المدينة وحراسُ السورِ المتواضعين، ثم يكرر الفارسَ المطلب، فيتباحث أهلُ الفردوس فيما يقولَ، وكانت "زاهرا" تنصت للكلام و تسمع طلب الفارس، وبدا عليها فهمٌ لما يطلبه، وكأنه يتحدث لغة قريبة من لغة "زاهرا" الأصلية، فتخبر "رايجن" -زوجها-،بأنها تظن بأن الفارس يتكلم لغة قريبة من لغتها القديمة، فقال "رايجن" وماذا تظنين أنه يقول؟ فقالت: أظنه يقول بأنّه يريد الماء والتراب.

"رايجن" : وهل القوم قومكِ ؟!

"زاهرا" : أبداً ، مستحيل.

فأخبر "رايجن" الزعماء وهم بدورهم نقلوا الخبر لشيوخَ المدينة وملكَها الذي بدا كالحشرة الحقيرة أمام منظر الجيش العظيم وقائده المهيب، فقال: أنهم يتكلمون لغةَ زوجتي وهم يطلبون الماء والتراب!! ولكنهم لم يفهموا ماذا يعني ذلك أيضاً؟

وما أن تكرر المطلب سبعَ مراتٍ ولم يرد أهلُ المدينة جواباً اعتبر سكوتهم جواباً سلبياً معناه الرفض، فرفع عظيم الجيش العظيم يده وأشار لجيشه بأن يتقدم، وهكذا تحركت الأرضُ وتزلزلت بحركتهم و ضربوا الحصارَ على المدينة.

اجتمعَ وجهاء المدينةِ، وزعماءُ المهاجرين يستمعون،وكان عنوانُ جلستهم الطارئة هذه هي: ماذا نفعل؟ واتفقوا على التوجه إلى مركز المدينة، وقد بُني لهم هناك شبهُ قلعة للأوقات الحرجة، ليست كطراز قلاع "أور" و"حيثيا" أو قلاع القرون الوسطى، ولكنها قلعة تليق بعصرهم ويمكن أن تبقيهم آمنين لبعض الشيء، ولكن القلعة هل تكفي جميع سكان المدينة؟؟

الجواب كان كلا، فاتفق على أولوية الجنس الأسود، ثم سكان المدينة الأقدم فالأقدم، وهنا كان "الوالكوتيون" وأتباعهم ضحية مؤكدة لقرار المجلس، واحتجوا بحجة زعماء المهاجرين في أنهم

جاؤوا للدفاع عن المدينة، ولم يُبدِ الزعماءُ أي اعتراض لأن الشهادةَ كانت منهم وعليهم، فكان القرار متوقعاً من قبلهم ولذا كانت الفكرة في هذه الحالة متزهبة، فقرروا تجنيد شعبهم في تقوية سور المدينة، وترك أهل الفردوس يدخلون القلعة.

توجَّه الزعيمُ إلى شعبه وذكّرهم بالمسؤولية الملقاة عليهم، فتقبلوا القرار، وبذلوا جلّ جهدهم في تدعيم السور وبناء سور آخر وراء السور، رغم جهلهم بوجود المجانيق وتكنولوجيا يسهل معها هدم أو ثقب أسوارهم، ولكنهم وضعوا خطة احتياطية، لعل الخوف الزائد من المصير المجهول هو ما دفعهم لهذا الخطة. وتوجّه جزءٌ من المهاجرين لاستغلالِ مبنى تجاري قديم و جعله قلعةً مصغرةً في حال الطوارئ، فسوَّروا العمارة بسور من الحجارة والحديد، وقد استفادوا من بعض سكان المدينة الذين لم تسعهم القلعة الرئيسية، ثم أغلقوا الأبوابَ عن طريق البناء، حيث تُرِك بابين فقط للدخول، وجهزوا آلة لإغلاق هذه الأبواب بعد الدخول الطارئ، وبذلك صنعوا قلعة خلال يومين أو ثلاثة أيام، ولكن السور الثاني الذي خلف السور الرئيسي لم يكتمل، وقد ظنوا أن جيشَ العدو سيحاولُ اختراقَ السورِ بطُرُقِ التثقيب وكسر الباب بالضرب، وهم كذلك وإذ ينادي القسمُ الذي

على السور الرئيسي الرجالَ ويخبرهم بأن العدوَّ يقترب خطوات، ومعهم الوحوشُ الكبيرة التي تسير على عجلات (المجانيق) : استعدَّ الجيشُ للضرب.

وبعد أن أتمَّ الأعداء الاستعداد توجَّه الفرسانُ الذين جاؤوا في البداية يطلبون الماءِ والترابِ! وتكلموا، فتوجَّهت الأنظارُ إلى "زاهرا" التي يمكن أن تكون قد فهمت لغَتَهم، فتوجهت من أعلى السور واستخدمت لغَتها القديمة والتي تظن بأنها تشبه لغتهم بالفعل، وسنعرف فيما بعد علةُ تقارب اللغتين، فنظرَ الفرسانُ إلى بعضهم البعض ثم فقالوا: نريدُ أن نكلم كبار قومكم، أين هم؟ ففهمت "زاهرا" ذلك فقط عندما فهمت كلمة (نريد) و(محادثة) فقالت "زاهرا" لزوجها ما فهمت، ففكر ملية ثم قرر التوجه إليهم ليعرف ما يريدون ولكن الذين معه رفضوا الفكرةَ لعلَها تكون خدعةً، ثم قال أحد الفرسان: إن لم تجيبونا هذه المرة سنبدأُ بالهجوم؟ فترجمت "زاهرا" والكل على موقفه، فعاد الفرسانُ خائبين إلى قائدهم، الذي أمر جيشه بالضرب بالمجانيق أولاً.

عُبئت مقابضُ المجانيق بالصخور الصلبة المنقطة، وأشعلوها ناراً، فبدأ القصفُ، و"الوالكوتيون" ينظرون إلى تلك الشهب تنطلق

وهم غير مستوعبين عن كنهها، فترتفع عالياً ورؤوسهم كذلك، ثم تنزل على تلك الرؤوس زاهقة أرواحها، وهكذا بدء القصفُ المضاعف، والشُهُب تنزل على سور المدينة، فإذا به يتهاوى سريعا، وان كان تدريجيا، فسقط أغلبُ من كانوا على السور، و"رايجن" يحملُ زوجته ويهرب، إلى ما وراء السور الثاني، مع رفيقيه "بشير" و "لي" وهم ينظرون خلفهم كيف يُدَكُّ السورُ الذي كان عظيما في نظرهم، وبات الآن مستويا بالأرض حقيراً.

استمر القصفُ حتى العصر، وتقدَّم جيشُ العدو مئة خطوة، ثم توقف، وتوقف معه القصف، و أهلُ المدينة يجهلون ماذا سيحدث بعد الضرب السماوي، وكل ما يقولونه في قلوبهم: إنَّ الجنة تتهاوى أمام الجحيم، وبدؤوا ييأسون فعلاً، وحاول بعضُهم الهرَب من المدينة ولكن الأفواج العسكرية تعترضهم من كل جانب، فمنهم من يُقتل ومنهم من يقع أسيراً.

اجتمع المساكينُ مرة أخرى، وخرج الرأي الذي يقولُ بوجوب المقاومة، ولكن بماذا؟ هكذا اعترض الزعماء عليهم، ولكن من اختار المقاومة أصر على خياره، خيار الهجوم، وكان منهم "لي" وأسرته، وهكذا وهم يصمُّون آذانهم عن رجاء إخوانهم وأوامر وجهائهم،

يُقفزون على حطام السور الأول فيهاجمون الجيشَ الجرار، الذي يكتفي فقط بكتيبة مشاة صغيرةِ العدد لتقضيَ على هذه المقاومة المسكينة، بالسحق التام.

وحلَّ الغروبُ وكان مانعاً من الهجوم الشامل، فأمر القائد العسكري بإعداد المجانيق التي تستهدفُ داخل المدينة، وفعل العسكر ما أمر، ثم بدأ معه القصف الثاني الذي أنارَ الليلَ بناره الملتهبة، والتي أحرقت سكان المدينة، الذين ينظرون إلى جنتهم وهي تحترقُ بنار الجحيم.

تثار الضجةُ ويتوجه عدد من الرجال نحو القلعة الرئيسةِ طالبين المساعدة، ولكن أية مساعدة تنفع هنا؟ فلم يكن هناك جواباً. يأمر الزعماء بالتحصن خلف العمائر والبنايات، والدخول في سراديب المباني، ومنهم من احتمى بإلقاء نفسه داخل سيارات قديمة، وحطام طائرات، ومنازل، وكان خيارا موفقا بعض الشيء، إلا إن انفجار محطات البنزين وبعض السيارات المعبئة ببعض البنزين من زمن أنتج مشاكل متفاقمة عليهم.

انتهى قصفُ الليل، ولم ينم أحد من أهل الفردوس وساكنيها، وجنودها، أما الأعداء فأُمر بإراحة القائمين على القصف الليلي،

وإيقاظ الجنود الذين استراحوا وقت القصف، فكان أهلُ الفردوس على ضعفهم ضعافا تعابى، وكان أهلُ جهنم على قوتهم أصحاء نشطين.

تقدَّم العدو مائة خطوة أخرى، وبدء استهدافُ السور الثاني الذي هو أكثر تواضعا، ولم يستخدم القائد كل تكنولوجيته المهيأة لحصار المدن أو اقتحامها، لأنه لم يرى أية صعوبة تذكر، ولعله يستعرضُ قوته طوال الوقت، أو يستخدم ما لم يستخدمه منذ زمن طويل عندما رأى مدينة تستحق نسبياً استخدام هذه التكنولوجيا.

ما أن علت شمس الصباح بنورها إلا وقد تمَّ دكُّ الأسوار، وهكذا كُشفت المدينةُ المقدسة أمام الجيش المهيب، الذي لم يبدأ هجومه الحقيقي بعد.

استجمع المهاجرون قوتهم، وقد مات أغلب زعمائهم جراء القصف الليلي، وقُتل منهم مجموعة عظيمة خلقت لهم رغبةَ الانتقام مع يأس تام، فخُيروا كرهاً بين موتين، الموت الشريف الذي طالما يبغاه الرجالُ الحقيقون، والموت الجبان، وهكذا ودَّع الأحباب بعضهم بعضاً، وطُلب من النساء والأطفال بأن يحتموا بالقلعة المبنية لحال الطوارئ، و"رايجن" يلتقي بحبيبته "زاهرا" التي كانت حاملاً بابنه،

والـدموع تنهمـرُ مـن الطـرفين، وتطلـب الزوجـة - كمـا هـي عـادة الزوجات- أن يحاول "رايجـن" الهـرب معهـا إلـى أي مكـان، لا نريـد جنة موعودة، أي كهف هي راضية به، على الأقل ادخـل معنـا القلعـة، وهي تسرد الاقتراحات التـي هـدفها إبقـاء أمـل لحيـاة حبيبهـا وبطلهـا، والبطل رغم أنه يعلم بأن المقاومين من شعبه مخدوعون بشعار الـدفاع عن جنتهم وما اجتهدوا لأجله لكنه يأبى أن يترك رفاقه الرجال ويجبن أمام بطولتهم وإيمان الجمع، سواء كان حقـا أم لا، فـ"رايجـن" يعتبـره "الوالكوتيون" بطلاً من أبطالهم، فمن العار أن يجبن فـي هـذا الموقـف الخطير، وهو أشرف موقف يموت فيه الرجل، ولـيس مـن المتوقـع أن يرفضُ البطل هذا ويهرب، بل كل التوقعات تقـولُ بـأنَّ البطـل سـوف يتقدَّم الهجومَ ويكون الكبش فيه وحامل الراية.

الشرفُ دائمـاً يغلـب الحـبَّ فـي قلـوب الـشجعان ومـن واجـب الحب أصلاً أن يكون شريفاً ويدعم البطل لمسير الشرفاء.

تودع "زاهرا" "رايجن" وتستذكر معه الذكريات، ويُوصي البطلُ حبيبته توصيات، بأقوالٍ و وصايا يطلب من زوجته أن تقولها وتوصلها لابنه الوحيد، الذي لم يولد بعد ولم يره، يتعانق الحبيبان بقـوة، طـويلا وسط أصوات الحرب، ويحتضن بعضهما البعض ويتحسـسان أطـراف

بعضهما البعض ويقبلان كلَّ جزءٍ من الجسم تقع الشفاه عليه، كان في علمهما أنها اللحظات الأخيرة والعناق الأخير واللقاء الذي سيصير الحبيبَ بعده مجرد نقش في لوحة الذكريات.

ولم يكن ذلك المشهد منحصراً فيهما، بل كان هذا المنظر متكررا عند أحبة آخرين في نفس الوقت، وهكذا توجه الجميعُ إلى الميدان، وتفرقوا عن القلوب.

قرابة المئتين من آل "والكوت" مقابل خمسين ألفاً ويزيدون من الجنود المدربين، شرذمة من رجال العصر الحجريّ يحملون آلات مضحكة أضحكت القائدَ المهيب، مقابلُ ألوف مؤلفة من مشاة برماحٍ ودروعٍ وخوذ وفرسان مدججين بالحديد والبرونز، بل وفيهم من كان يرتدي لباساً ذهبياً وفضياً وعليه الريش يعتمر، وفي ذلك الموقف وهذه النملة واقفة أمام الفيلة، انتاب قلبُ القائد العسكري الشفقة، ولكن الواجب جعله يلتزم بإخضاع العدو مهما كان، وقد أُعجب بهذه العصابة القليلة الشجاعة، فأمر المقدمة والتي ستهاجم بأن تحاول أسرهم إن استطاعت وإبقاؤهم أحياء.

يعم الهدوء قليلاً، ولا يبقى إلا صوتُ المحارق خلفَ ظهور "الوالكوتيين" الشجعان، طالبي الموت، يتقدم متحدث الأعداء ذي

الصوتَ الجهوريِّ المهيب، يطلب منهم الاستسلامَ، ولكنهم لا يفهمون لغتَه، فيهزُّ المتحدث رأسَه كأنه يقول: يا لهم من مساكين. فيعود إلى القائد العظيم، وينقل له الجوابَ السلبيَ، فيقول: هم ومصيرهم الذي اختاروه، اهجموا عليهم.

وقبيل الهجوم ينظر "رايجن" إلى جثة "لي" وهو متحسر عليه، ثم يلتفت إلى هجوم الجيش الجرار، فيصرخ بالمئتين الذين معه: إلى الموت.

ويبدأ الاشتباكُ، وكان موقفُ البقية من آل"الوالكوت" شجاعاً بحق، ولكنهم من هجمة واحدة قد قضي على أغلبهم، ولم يبق إلا عدة لعلهم بالعشرين، وهم يضربون بيدهم بعد أن تكسرت عصيَهم، وانتُزع من الباقي حدائدهم، فيقبض عليهم في النهاية، وقد أعياهم التعب وقوة العدو، وهم كذلك حتى يتقدَّم القائد ويخترق الجيش بحرسه، لينظر إليهم، وكان من المتبقين "رايجن" و"بشير"، وينظرون إلى هيبة القائد في أول نظرة قريبة لهم، عظمة على عظمة، في ملامحه وفي لباسه ودرعه وفرسه والريش العالي وعمامته وخوذته، وفي نظرته، فتحدث إليهم ولم يفهموه طبعاً، ثم أمر جنوده بأسرهم.

تقدَّم الجيشُ إلى داخل المدينة، ليبدأ السبي وجمع الغنائم، فيتوجهون نحو القلعة الصغيرة والقلعة الرئيسية، وقد علموا بوجود أناس داخل القلعتين، فيبدأ الحصار الثاني، ولكن القائد أمر بإراحة الجند، وإبقاء الحصار قليلاً فربما ينفذ الطعام والمشرب على المحاصرين فيستسلمون بعد ضيق الحال، خصوصاً بعد استعراض العضلات. هكذا فكر زعيم الشياطين.

يُزج "رايجن" و"بشير" في حضيرة السجناء والعبيد، قد حوت رقابَهم الاصفادُ والسلاسل، والأسرى صفوف، وأمر الحارسُ بالجلوس، وأرسل الماء إلى الأسرى الجدد، فشربوا وهم في غرابة من هذا الموقف من البربريين!

ويستمر الحال يوماً، وفي اليوم التالي، يتمُّ توزيعُ الطعامِ على الأسرى، وإذا بـ"رايجن" يصادفُ رفيقَ طفولته ودربه في صدفة خيالية، رأى "فيرون" فناداه ونظر "فيرون" إليه وهو فرح أيضاً، لا يصدق، فسأله عن الأحوال وشكى بعضهما لبعض، وعرف "رايجن" أن "اوبستير" و "بامير" قد قتلا أثناء غزو الأعداء أراضيهم، و أفرغ كل منهما ما في جعبته من حديث عن الأحوال السابقة والتي كانت أثناء مغيب كل منهما عن الآخر، وقد اخبر "رايجن" "فيرون" بأن زوجته

حامل، فسعد "فيرون" وهنأ "رايجن" ثم استطردا في الحديث عن الجيش الذي اجتاح البشرية، جيش البرابرة.

يقول "فيرون" أنه رأى من "البرابرة" أشياء عجيبة غير متوقعة، في عاداتهم وملبسهم ونظامهم ولغتهم، بل وعجز عن وصف عادة تجمع أفراد الجيش الضخم كله، فالجيش لم يكن وحدة واحدة ولم يكن من جنس واحد! وقال: اعتقد بأنهم عبارة عن شعوب وأمم كاملة من كوكب آخر، نعم فالجيش كان منقسماً إلى شعوب متعددة، غريبة عن الشعوب الأرضية المستقبلية! شعوب الأرض في زمن "رايجن" و"فيرون"، ولكن "فيرون" بيّن ملاحظته في وجود جنس أو طبقة مقدمة في الجيش، كانوا ذوي هيبة، معتدلي القامات -ولكنها أقصر نسبياً من الانجلوسكسون-، أقوياء، أجسامهم صلبة، وعليهم آثار التجارب وعنف المعيشة، معيشة وهبتهم شدة وقوة بدنية مميزة، تبدو على وجوههم سمات النبل والروعة، ولبسهم عند إلقاء الدروع وعدة الحرب هو سروال مثلث الطيات وقميص أبيض من التيل ومئزر من طبقتين، ذي كمَّين يغطيان اليدين، وقطعة في وسط الجسم، وكان الرجال يطيلون لحاهم ويرتبونها ترتيبا جميلاً، إذ يجعلونه غدائراً، وشعورهم كذلك منسابة في غدائر، ما إن رجع هؤلاء من الحملة (غير

المتعبة) اغتسلوا ثم تعطروا بالأدهان، وكان بعضهم يتعممون بعمامة وآخرون بعصابة تمسك شعورهم المدهنة والمزيتة من أن تقع على العيون، أو قلنسوة، فكانت أجسادهم مغطاة من الرأس تقريباً حتى الرجلين، أما زعيمهم فهو الملك الجبار، الذي يفوق هذه الطبقة المتقدمة أبهة وشموخاً، وفي زخارفه المذهبة وأساوره الذهبية والفضية.

أما باقي أفراد الجيش فكانت تتألف من فرق مجندة ومختلفة، فمنهم من يحارب عارياً بالكامل ويكتفي بالترس والرمح والخوذة ، ومنهم من - كما الطبقة المتقدمة- من يغطي كل جسمه، وكانت كل فرقة تتكلم بلغة خاصة وغريبة، رغم أن "فيرون" والأسرى لا يعرفون أي لغة منهم ولكنهم استطاعوا التمييز وملاحظة وجود لغات متعددة، وكل فرقة تقاتل بأسلحتها وتتبع أساليبها الخاصة، ولم يكن عتادها وأتباعها اقل اختلافاً من أصولها: فهناك العصي والسهام، والسيوف والحراب، والخناجر والرماح، والمقاليع، والتروس والخوذ، والمجنات المتخذة من الجلد، والزرد، وكان هناك من يركب الجياد وهناك من يركب الإبل،وهناك من يركب الفيلة! وهناك عربات مركب على عجلاتها حدائد حادة تقطع بسهولة كل شيء يعترضها .. الخ كان

جيشاً جراراً من شعوب مختلفة، في مقدمة هذا الجيش طبقة بارزة يترأسها الشيطان الأكبر، وهو مالكها ومدبر أمورها.

ويصحب الجيش المنادون - (الذين يعلنون القرارات ويوجهون الأوامر فيترجمها المترجمون ويوصلون ما ترجم إلى لفرقهم)- و الكتبة، وغلمان وعاهرات وسراري، و خلفهم الأسرى.

ويقول "فيرون" عن أخلاقهم أنهم قساة ولكنهم بالنسبة لقسوة الشعوب الحديثة - في عصر القصة- أنبل وأكثر رحمة بشرط عدم إظهار أي عداوة أو محاولة للهرب، فان المجرم أو الأسير الذي يحاول الهرب أو يعترض على السادة سيواجه أشنع أنواع العذاب، وبطبيعة النفس البشرية كان "فيرون" يركز أكثر على مساوئ الجيش ومظاهر الشيطنة فيهم، ولكن كثرة الأدب في الجيش اضطره لأن يذكر بعض العادات التي لا بأس بها، نحو عادات السلام والتحية والأكل والشرب والتواصل ومعاملة الناس، وتكلم "فيرون" عن دينهم وأكد لـ"رايجن" بأنهم فعلاً قد جاؤوا من الجحيم، وجمال منظرهم النسبي ما هو إلا غرور الشيطان وخداعه، فكانوا -كما يقول "فيرون"- يتقربون من النار ويقدمون له القرابين، نار جهنم، أصلهم!! هكذا فسر "فيرون".

عاش "رايجن" في الأسر أياماً، وهو ينظر إلى عادات العدو ويجد كل ما قاله "فيرون" يُسرد مرة أخرى أمام ناظريه، وكله دعاء بأن تحدث معجزة أوكرامة سماوية تنقذ القلعة الصغيرة وأن يلتفت الجيش الغازي إلى القلعة الرئيسة فيلهى عن القلعة الصغيرة، القلعة التي بناها ودخلها "الوالكوتيون" ودخلتها حبيبته "زاهرا".

وكم من دعوة من عابد زاهد لا تستجاب، وفي عدم الجواب كل الخير، ولكن الجهل وما يفعله في قلب المعايير وخلق الأحكام الواهمة والأنانية، (وستعلم كيف فيما بعد).

تصلُ أخبار الجواسيس الذين حددوا موقع القلعتين، ويحددون مواقع الضعف والقوة في كلا القلعتين، وعلم القائد بأنه لا قوة في تحصين القلعتين أمام قوته الجبارة، ولكن نسبياً تبقى القلعة الرئيسية أكثر تحصينا وأقوى سماكة وتحتاج بعض الجهد، وتتوجه فرقة من فرق الجيش تطلب من القائد أن يعطيهم شرف فتح القلعة الصغيرة، وقد قبل القائد ذلك وسمح لهم بذلك.

تتوجه الفرقةُ العسكرية برماحها وخوذها وتروسها إلى قلوب "رايجن" والأسرى، ففي هذه القلعة لا يقبع إلا الزوجات والآباء والأمهات والأخوات والأبناء، كلُّ الأحبة هناك، فماذا يفعل رجال آل

"والكوت" وهم مكبلون بالسلاسل والحديد، وقد رؤوا بأم أعينهم كيف يعذب ويعدم الذي يحاول الهرب أو الاعتراض حتى، ولكن ليس هذا الذي أعجزهم، فقد طلبوا الموت من قبل، ولكنهم عاجزين الآن عن طلبه، لأنهم في الأقفاص والسلاسل، والغالب منهم يئس من الدنيا، ومنهم من حاول التحرك ولكنه لاقى الويل والموت على الفور، فلم يبق لديهم غير أمر واحد يقوى عليه العاجز، وهو التوجه لشيء كبير ودعوته بالتدخل! سواء أطلق على هذه القوة لفظ الله أو البراهمان أو التاو أو أي مسمى، فمهما اختلفت المسميات والتفاسير فان الإنسان حينما يعجز عجزا كاملا، ولكنه يرغب بشيء مصيري، وهو في قمة العجز فانه يتوجه لقوة لا يعرف عنها أي شيء، إلا أنه بوجدانه -وهو في ذلك العجز والرغبة الشديدة- يشعر بوجود هذه القوة المستطيعة. مؤمناً كان أو ملحداً، أنكر ذلك أو لم ينكر، فسره تفسيراً لاهوتياً كاثوليكاً أو تفسيراً بوذياً أو فيثاغورسياً .. فإن عموم تلك التفاسير تتفق في ان الإنسان عندما ينظرُ إلى نفسه عاجزاً ويرغب في إتمام قضية يراها عادلة فإنه يلجأ لشيء يؤمنُ بأنه عظيم وكبير ويؤمن بأنه قادر ويحب الأمور الجميلة واللطيفة، قد يعجز لسانه وقت ذلك في نطق الكلمات التي تفسر إيمانه أو حتى مفردات الدعاء،

ولكن القلب فُطر على ذلك، وكأنه تربّى في كنف هذه القوى الغيبية، فالطفل عندما يعجز عن إشباع رغبة يريدها يحاول أن يطلبها من أمه ويلجأ لها أو لوالده، فيرجوه بحركات و كلمات تكسر الخاطر، والمظلوم اجتماعياً أو سياسياً يلجأ دائما لمن يرى أو يؤمن بأنه قد يساعده ويستطيع إشباع رغبته وتلبية طلباته العادلة! فهذه عادة من عادات الإنسان الطبيعية، مرتبط بالأمل الذي تكلمنا عنه، ومعجون به، وهكذا عندما يؤمن بأنه يعجز ولا يستطيع اللجوء إلى إنسان أو حيوان أو جماد أو مادة ..الخ لتلبية طلبه الذي يراه بأنه عادل، فإنه لا يتوقف عن اللجوء إلى الأمل والدعوى لشيء كبير قادر، انعدمت الماديات التي تستطيع مساعدته، ويئست قواه الجسدية، ولكنه لا يزال في قرارة قلبه يطلب تدخل شيء، شيء كبير، قادر، عادل، جميل، منتقم! وكأن هذا الإصرار قد دُرب الإنسان عليه أو ورثه في جيناته من قبل واضع وطبيب متعمد قديم، أليس هذا ممكنا؟؟ بل أليس عدم لجوء العاجز للماديات وإصراره في الأمل ودعوة شيئاً عظيماً دليلاً على وجود قوى غير مادية تتحكم؟؟ ألا يدل على أن ذلك العظيم الغيبي موجود ويحس به الإنسان في قرارة نفسه؟ برأيي نعم ولكن الإنسان يحتاج إلى ترويض النفس للابتعاد عن الماديات ليحس بذلك الوجود

الغيبـي، ولكـن مـا هـي الطريقـة فـي تـرويض الـنفس؟ هنـا اختلـف المختلفون في تحديد الصراط المستقيم، وهكذا كـان "الوالكوتيـون"، ابتعدت آمـالهم عـن قـدرتهم العـضلية أو عـدل الطبيعـة (الكارمـا فـي البوذيـة ، والماخـت بالفرعونيـة) وعـن كـل شـيء مرئـي أو ملمـوس ويئسوا من كل الماديات، فلجؤوا إلى الغائب عن أنظارهم وملمـسهم، وتوجهت له الدعوات القلبيةُ الخالصة.

توجهت الكتيبةُ ذات الخوذ البرونزية والتي يعلوهـا ذيـل الحـصان إلى هدفها، واكتشف جماعةٌ منهم مداخل القلعة الصغيرة، ونقاط ضعف المكـان، فبـدؤوا باقتحـام الأبـواب، وبـسهولة نـسبية، كـسروا المـداخل واقتحموا المكان، وبدأ السبي والأسر، وضجت العمارة وعلت الصيحات والعويل، وببساطة تم إسقاط القلعة الصغيرة، وجلب باقي "الوالكـوتيين"، إلى معسكر الجيش.

تتملـق الكتيبـة للقائـد وتعلـن أن نـساء القلعـة كلهـن سـبايا لـك ولأسرتك وجنودك المخلصين - (يقصد الطبقة المتقدمة فـي الجـيش)- والرجال عبيدٌ لكم والأطفال والغلمان خصيان لكـم: تقبلـوا هـذا القربـان. ينزل القائد من عليائه ويغتـبط لقربـانهم، فـأعلن عـن زيـادة أجـر الكتيبـة الباسـلة الظـافرة، وأنّ لهـم الـسبايا والعبيـد بالإضـافة إلـى الغنـائم، ولكنـه سيختار عدة نسوة وفتيات كمحظيات له.

فتم تقديم الجميلات له صفاً- (وطبعاً رجال آل"الوالكوت" الأسرى بعيدون عن هذا، لا يعلمون إلا خبر هجوم الجيش على القلعة)- وكانت من بين الفتيات "زاهرا" وردة "رايجن".

يمر القائد وهو على حصانه بأبهته العظيمة، وينظر من فوق إلى الجميلات، فيؤشر على فلانة فيتم أخذها وانتزاعها ، ثم أخرى فتسحب من مكانها يائسة غير واعية، ثم رأى "زاهرا" وهنا شد قلبَه منظرها الجميل، لاكشدة شهوانية فقط كما في السابقات، بل وكأنَّ منظرَها البريء ولد فيه شفقة، ورقت عيناه لها، فسألها عن اسمها، فلم ترد، فضربها الجنديُّ وصرخ يطالبها بإجابة القائد، فنظر القائدُ إلى الجندي نظرة غضب فقال له باعتراض مرعب: من قال لك أن تضربها؟؟ فسجد الجندي طالباً الغفران وتراجع، واعتقد القائد بأنها لا تفهم لغته، فاختارها وتم أخذها من الصفِّ لتنضمَّ إلى محظياته، وهي لا تعلم بأن "رايجن" حي، والقائد لا يعلمُ بأنها متزوجة وحامل في الأشهر الأولى.

وهكذا دخل آل "والكوت" جميعهم في أسر الظلام والوحش الغريب، وبقيت القلعة الرئيسية.

# الفصل الخامس

## الفصل الخامس:

# الأسر البابلي

ويسبي الوحوش بني "والكوت"، وفوقهم ينظر القائد بعلو واعتزاز وكأنه "نبوخذ نصر" الثاني وهو ينظر لجموع بني إسرائيل تدخل في أسره صفوفا مصففة، وتنضم"زاهرا" إلى قائمة محظياته، وهي قائمة طويلة، واعتقد القائد -الذي لم يهزم قط في الأرض الجديدة- إنه اقترب من تنفيذ مهمته! فأرسل الرسل ومعها تباشير الفتح إلى جهة الشمال، إلى من؟ لا نعلم ولا يعلم آل "والكوت"، فهل هذا الجيش الضخم قد جاء من مكان معين من الشمال؟ وهل هناك في تلك الجهة إخوان لهم كُثر ليبشروهم بالنصر الوشيك والفتح المبين؟ لا يهم ماذا يفعل البرابرة، فالكل يفكر في حاله، لذا قال الأسرى: ماذا نفعل نحن؟ وماذا يُفعل بنا؟

"زاهرا" ومعها بعض بنات آل "والكوت" صرن للرجل الذي يقود الظلام، كانت المحضيات الجديدات خائفات، لا يعلمن ماذا يريد هؤلاء

منهن، وتؤخذ "زاهرا" والجميلات لمكان مخصص لنساء القائد، فتقدم لها جندي من جنود السوء فخاطبها بلغة فهمت بعضها: هيا إلى الأمام هيا.. !! استغربت "زاهرا" في أنها الوحيدة التي تفهم بعض لغات العدو رغم كونها لا تنتمي إليهم، وبدأت تركز ذهنها على لغة الجيش التي تشابه لغة أهلها الذين سبقوا أهل "والكوت"، ما سرُّ ذلك؟ أُثير الفضول، هذا الفضول الذي حرك البشرية نحو العلم والمعرفة والفلسفة، ومنه فُسر كل شيء، هذا الفضول الذي فتح أبواب اللغة الهيروغيليفية البائدة والآرامية و العيلامية و غيرها من اللغات الميتة في وقت لا يوجد أحد يتكلم بتلك اللغات أفلا يستطيع أن يفك رموز هذه اللغة التي تشابه لغة "زاهرا"؟ هذا الفضول الذي كشف الذرة ثم كيفية انفلاقها فاخترع لنا قنبلة تستطيع تدمير الأرض ثمانية عشر مرة ألا يستطيع فلق هذه اللغة القريبة؟ وهكذا بدأت "زاهرا" تبحث عن سر هذا التشابه، وتتعلم لغتها الأم! أكثر وأكثر. واكتشفت أن الجيش البربري لا يتكون من شعب أو جنس واحد بل متعدد الأجناس والقبائل، وكأن هذه العساكر شعوب كوكب آخر من الفضاء الخارجي، انتقلوا جميعاً لاستعمار الأرض واستيطانها -كما تصور "فيرون" منفرداً- بعد أن يقضي على الحياة البشرية فيها، كالمخلوقات الفضائية في الافلام التي جاءت تستعمر الأرض بعد أن تقضي على الحضارة البشرية. وميزت "زاهرا" الجنود

الذين يتكلمون اللغة المشابهة من الجنود الذين يتكلمون لغة أخرى، وكانت هذه الفرقة التي تتكلم اللغة القريبة هي الفرقة المتقدمة في الجيش، البارزة في الميدان والشكل والملابس والمعاملة، وجمعت المعلومات وتعرفت أكثر على اللغة وأتقنت بعض كلماتها، وحاولت من خلال ذلك التطور اللغوي أن تتواصل مع أحد الحراس الذين يرافقون المحضيات دائماً، ولكن في البداية لم يلتفت الحارس.

وهي تراقب وتلاحظ، وتحاول التواصل مع الجندي في إحدى الأوقات، وإذا بالجندي يأتيه صديق له يبشره بخبر ويقول: همسرت (..) أست، وما بين الكلمتين المفهومتين بالنسبة لـ"زاهرا" جاءت كلمة غريبة، ولكن من حركة الصديق على بطنه وهو يبتسم للحارس، عُرف أنه يقول إن زوجته حامل، وقد استشر الحارسُ وفرح فرحاً شديداً، فلما ذهب صديقه والتفت إلى "زاهرا" وكان مزاجه عالياً، استغلت "زاهرا" ذلك للتملق، فقالت له مبروك.. مبروك! وفهم الحارس الكلمة فابتسم لـ"زاهرا" وبدأ بذلك مفتاح الحديث بينهما، وبدأ الحارس يعلمها قليلاً من الكلمات والمعاني حسب لغة الجيش ، وبدأت تتعلم بشكل أفضل حتى اتقنت الكلمات الأساسية.

و خلال دروس اللغة تلك، جاء أحد خصيان القصر المتحرك - (أي خيمة القائد الفخمة)- إلى الحارس ليخبره بأن القائد يريد البنت

التي لفتت نظره عند السبي -أي "زاهرا"- فجاءها الجندي و أمرها بمرافقة الخصي، فذهبت "زاهرا" ويعتريها الخوف في ذلك إلى وكر زعيم الظلام، وحش الوحوش.

وهي تسير إلى خيمة القائد و الليل قد غطى بعباءته السماءَ ترى العجب من النظام والجمال المذهب والذي يزداد لمعاناً كلما اقتربت من خيمة الرئاسة، فيأتيها الاعتقادُ بأن هؤلاء الغرباء في مرحلة متطورة جداً من النظم والترتيب والعادات (الاتيكيت) الرسمية في التعامل مع بعضهم البعض، و صدّقت كُرهاً بأن هؤلاء الناس أكثر تقدماً من قومها وعصرها، ولكنَّ عاطفتُها مصرةً على أنهم بلا عقل ولا رحمة، جاؤوا لقتل الابرياء، سلالتهم قد جاءت رأساً من صلب الشيطان لا يريدون غير السيطرة على أرضنا الطيبة البريئة الخيرة، وحرق الفردوس واستعباد أهلها.

وتم إدخالها للخيمة الكبيرة، وإذا بامرأة أخرى جميلة تؤشّر على "زاهرا" بأن تستحم وتتعطر، وأن تبدل ثيابها، وهكذا أبدلت "زاهرا" جمالها المتواضع بجمال آخر أزهى وأمتع للناظرين، وتعطَّرت بعطور الأزهار والفل والياسمين مختلطة بعطر الخوف والريبة، وقد كانت جاهزة للجواب الذي سيمنع القائد من أن يلمسها، وهكذا باغتسال وتعطير سريع أدخلوها على القائد، فوجدته متكأ على الأريكة الذهبية، وإذا بذلك الجمال البريء الذي يثير عنجهية شهوة الرجل يدخل على

الذي لا يُخالَفُ أمره ولا يرد له طلب، أقوى الأقوياء، وقد طلب "زاهـرا" تلك المحظية فهل سترده؟

طلـب منهـا الاقتـراب، و دفعهـا خوفُهـا وهيبـةُ القائـد إلـى الأمـام، فتقتربُ مكرهةً إلى الرجل، ويطلبُ منها الجلوس جنبه وعـدم الخـوف، ولكنها توقفت بعد خطوتين ولم تقتـرب أكثـر مـن ذلـك، وكـرر الـزعيم طلبه، ولكنهـا لـم تلبـي، فعـبس الرجـلُ قلـيلا ونهـض إليهـا، فتراجعـت وتذكرت كلمات صاحب حارسها الذي بشَّر الحارس بأن امرأتـه حامـل بابنـه، فكـررت الجملـةَ للقائـد، قالـت: إنـي حامـل ولا زال ولـدي فـي أحشائي، وفهم القائد ذلك، ولكن الشك أثار عقلَه فطلب من الحراس أن يأخذوها إلى إحدى المختصات التي تستطيع أن تكشف الحمل وعدمه. وهكذا في الليل تمّ إيقاظُ العجوز العارفة وقدم لها "زاهـرا" لكـي تعـرف هل هي بالفعل كما تدعي أم تذرعت بذلك العذر كاذبة لتبتعد عن لمـس القائد العظيم؟؟ فتمَّ الكشفُ وتبين صدقُ قولها، وتـمَّ إرسـالُ الخبـر إلـى القائد، فطلب الأخيرُ أن يتمَّ الاعتناءُ بـ"زاهرا" حتـى تلـد وتـم العفـو عنهـا من المعاشرة حتى تضع مولودها!!

وكانت "زاهرا" تخاف من أن يتم إجهاضها وقتل ابنها وابن حبيبها "رايجن" وهو في الأحشاء، ولكن خبـر إعفائهـا مـن قبـل الجنـرال الكبيـر نفسه كان محل استغراب منهـا، كيـف يعطـف علـي الـشيطان وهـو الـشر

كله؟! وهنا بدأ الشك يأخذ مفعوله في قلب "زاهرا" وتصور عقلها لهؤلاء المجرمين؟! هل هم فعلاً مجرمون؟؟ وإذا كانوا كذلك فما هذه الطيبة التي أبداها المجرم الأكبر لها ولمولودها؟! هل يتنازل الشيطان عن شهوته حفاظاً على حياة وليد امعة بالنسبة له لا يعرفه ولا يعرف أصله ولا فصله؟! هذا الفعل وهذا اللطف ليس من أفعال الشيطان.

أثير الفضولُ أكثر حول الجيش وزعيمه، وهكذا كانت "زاهرا" الباحثة عن الحقيقة -(حقيقة الجيش)-، فلما عادت إلى خيمة المحظيات بدأت تسأل: من هذا الجيش؟ ومن أين أتى وماذا يريد؟ ولكن أغلب النساء من السبايا الجدد مثل حالها، مخدرات فاقدات للوعي، أو مثل تلك النساء اللاتي قدمن مع الجيش لا تجذبهن أمور السياسة والعسكر، كل ما يريدونه هو الحياة والمتعة ولا شيء غير ذلك، فلم تلبِ هؤلاء المحظيات شغف "زاهرا" للمعرفة والتعرف، فلجأت شيئاً فشيئاً بنوع من الحذر إلى الحارس الذي ابتسم لها وعلمها اللغة والمصطلحات الجديدة، ودار هذا الحديث:

"زاهرا" : أيها الحارس من أين هذا الجيش العظيم؟ من أين جئتم؟

الحارس: ولماذا تسألين؟

"زاهرا": أريد أن أعرفهم وأعرف العادات التي تجعلني أحداً منكم لا شخصاً غريباً.

الحارس بعد أن اقتنع بحجة "زاهرا": جئنا من كل مكان!

"زاهرا": من كل مكان؟؟ كيف؟

الحارس وهو يبتسم وكأنه يستهزئ بعجز "زاهرا" في استيعاب بلاغته: نعم من كل مكان يخطر على بالك باستثناء أرضك وشعبك.

"زاهرا": لم أفهم.

الحارس مستغربا الآن: ألا تعرفين من نحن؟ ولا أي فرقة رأيتيها؟

"زاهرا": إننا لأول مرة ننظر إلى هذه الأسلحة والدروع والأشكال، ولم نرَ طول حياتنا جيشا مشابها لجيشكم.

الحارس وهو يزداد استغراباً: لم تصادفِ أو يصادف أحد من شعبك أو تحدث أحدهم عن أي شعب من الشعوب التي تنتمي لها أي فرقة من فرق جيشنا؟؟

"زاهرا": لا

الحارس: ولا حتى تعرفون أهل طيبة؟ أهل ممنف؟

"زاهرا": من هؤلاء؟ وما هي تلك المدن؟

الحارس مستهزئاً: يظهر أنك لا تعرفين شيئاً عن شعوب الأرض، هل كنت تسكنين الغابة؟ اسألي أي فرد من شعبكم سيعرف من نحن ومن نكون؟ لا بد من ذلك.

"زاهرا": قد سألت العديد، وعندما كنا بالقلعة والجنة لم يكن أحد منا يعرفكم.

الحارس وفيه نوع من الغضب: ما هذا الجهل الفظيع؟ أتجهلين إمبراطورية عظيمة مثل إمبراطوريتنا وهي سيدة العالم كله؟ ألا تعرفين من يكون ملك الملوك وسيد الأرض الممتدة؟

"زاهرا": بحق الإله الأعظم لا أعرف شيئا مما تقول، علمني، اخبرني.

الحارس: أنا أقول بأن النعاسَ أنساك كلَّ شيء حتى من يكون أبوك.

"زاهرا" مسايرةً كلامه وفيها نوع من الأسى: نعم صدقت، قد نسيتُ أبي وأمي ومن أكون حتى؟ وهنا تكتفي ببعض الكلمات الغريبة التي ستنطلق منها للبحث عن المستور والغامض، فتترك الحارس وتذهب هي لتخلد إلى النوم.

ولنصبح على "رايجن" الأسير هو ورفاقه، لنجدهم غير محظوظين كحظ "زاهرا"، فقد كان يرقب عليهم حارس معتوه متكبر معه عصابة صارمة، لعل طبيعة عملهم -وهو مراقبة الأسرى والعبيد- حتم عليهم تلك الصرامة والعنجهية. ووسط ضجة العمل والعمال وسياط الحراس والجنود الغزاة كان "رايجن" و"فيرون" و"بشير" لا يفكرون إلا بمصير

الأهل والأحباب، و قد آلمهم كثيراً فقدان الأحبة، فكانوا لا يتركون السؤال عنهم: ماذا حل بأهل المدينة؟ فمجيب يقول: قد تم سحقهم وآخر يقول: بأنهم لا يزالون تحت الحصار، وكلاهما صادق لأن القلعة الصغيرة قد سبيت والكبيرة باقية تحت الحصار البربري، ولكن هذه الأجوبة كانت تزعزع الاطمئنان ولا تشفي لهيب الرابط الجميل بين الأحبة وفضول معرفة أحوالهم، فكلما جاء أسير جديد أو مر جندي غريب كان يتم سؤاله، ولكن لا خبر معتمد.

وأثارت هذه الأسئلة -التي خدرت "رايجن" ورفاقه وخلقت فيهم الكسل في العمل- حفيظة الضابط المشرف على الأسرى، فشدد عليهم السوط والعصا، وبالمقابل شدد "رايجن" ورفاقه الحقد عليه وعلى أزلامه، وتربَّت في قرارة أنفسهم فكرة الفرار، والتوجه إلى أهلهم لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، على أمل أنه يمكن إنقاذهم وقد بقوا أحياء.

فكرة زرعت فيهم طاقة للتحرك والفعل، فترى الانسان يقتل ويُقتل من اجل كلمة أو لقب، وتراه يمنع الخير ويسبب الشر لغيره لمجرد اعتقاد تافه، وهكذا كان إيمان الفقراء الضعفاء بهذا المعبود اللطيف، الأمل، الذي زرع فكرة في قلب "رايجن" والفكرة ولدت حركة والحركة أنتجت أفعالا ملموسة، فكانت الأمور غير الملموسة (المعنويات) تنتج أشياء ملموسة، أفليس هذا دليل على أن الموجودات

لا تــساوي الملموســات (المــواد) فقــط، بــل تعــم غيــر الملموســات (المعنويات)، لان الفاقد للوجود لا يعطِ وجوداً.

وعلى هذا الموجود اللطيف غير الملموس: الأمـل بوجـود الأهـل، والحب! اقترح "رايجـن" علـى رفاقـه المخـدرين، وكانـت ردود أفعـالهم مخلوطة بالاستغراب والموافقة، فهل نستطيع الهرب مـن هـؤلاء؟ ولكـن: هل سنخسر شيئاً إذا حاولنا؟ إذن كيف نهرب؟

عندما زُرعت الفكرة في حديقـة أفكـار "رايجـن" والرفـاق، كـانوا يراقبـون تحركـات الحـراس ونظـام حراسـتهم و وجهـاتهم ..الـخ ، فلمـا أُقترحت الفكرة كانت خطة الهروب مجهزة ومنتهية.

فلنرتفع قليلاً في الـسماء ليغطـي البـصر أحـداث القـصة: "رايجـن" وأصحابه يفكرون بالهروب والتوجه إلى الأهل وإكمـال مـسيرة الهـرب. أما "زاهرا" فتحاول الكشف عن حقيقة الجيش وأن تشفي غليل الفـضول الذي انتابها، وكأن هناك من يحركها غيبياً ويقنعهـا بـأن كـشف الحقيقـة سوف يساعدها ويساعد الناس، ولذلك كانت مصرةً علـى التعـرف علـى من هذا ومن ذاك؟

كانـت أيـام التخطـيط بالنـسبة لـ"رايجـن" ، أمـا بالنـسبة لـ"زاهـرا" فكانـت أيـام البحـث، تبحـث وهـي تمسح علـى بطنهـا، مـشتاقة لحبيبهـا "رايجن" و تتذكر الأيام الحلوة معه، تلك الذكريات جعلتها تبتسم، ولمـا

ابتسمت رآها الحارس الطيب! فسألها عن علة الابتسام الغامض هذا؟ فسردت له قصة زوجها "رايجن" وكيف أنقذها من الأسر، ثم كيف وقعت في الحب، فرد الحارس بعد أن أحسن الاستماع: لطيف، وأين زوجك الآن؟ فانقطع حبل الأفكار الجميلة وعبس القلب وحزن، وتكدرت "زاهرا"، واستوعب الحارسُ بأن مكروهاً قد أصابه، فتأسف ولم يقصد الإيذاء، وقبلت "زاهرا" عذره، وكان قلبها في صراع مع عقلها في توجيه اللوم على هذا الغريب -اقصد الحارس- وأمثاله، فهم من جاؤوا إليهم وهم الغرباء، وهم من قتل الأحبة وهم من يتم الطفل الذي في الأحشاء وغيره من الأطفال الذين ولدوا، هكذا تكلم القلب بعاطفته، ولكن العقلَ كان له بالمرصاد: فلماذا تعم الحكم يا أيها القلب؟ فهذا الحارس كان طيباً، ولم تجد منه ألا الطيب والسماحة، فلا أعتقد -يتكلم العقل- بان كل من في هذا الجيش بالشرير والكريه.

وتصارع القلب مع العقل، كما هو عادته في الكثير من الأحيان، فالقلب يحب أن يعمم ويحب أن يلقي اللوم على الغير، ويحب الانتقام بأي وسيلة ممن يضره ويؤذيه، دائما ما يكون القلب مندفعاً في أحكامه وتصرفاته، ولكن العقل -إن وجد- يطلب الروية في الحكم والانتظار حتى اكتمال المقدمات المنتجة، أو الإلمام بمعلومات أكثر تساعد على التصرف المنطقي، وهنا يظهر الفرق بين العاقل الحكيم وغيره، فالحكيم

من يحكم عقله على تصرفاته ويدرس المقدمات بموضوعية ويبتعد عن المعيارية والعواطف، ويحاول الإلمام بكل الاحتمالات الممكنة بخيالاته، ولكن هل يمكن للإنسان أن ينسلخ من عواطفه؟ قد يكون ذلك ممكنا عندما ننتزع القلب من الأحشاء، وبذلك يموت العقل، ولا يصله الدم المؤكسج -من أوكسجين-، فلا يمكن أن يعيش الإنسان بلا عواطف، فكيف يرد لأمه حقها وبعض جميلها الجبار لو لا الحب والمودة بينهما؟ كيف يكثر نسله دون حب زوجته، كيف يزيد من إنتاجه لو لم يحب عمله وشغله، كيف نعرف ونرتقي بالثقافة لو لم نتعاطف بقلوبنا مع الفضول وحب التعلم، فلا بد من العواطف ولكن المطلوب -وهو مطلوب بالتجربة الإنسانية- أن يتحكم العقل ويكون هو سيد التصرفات، وكأن العواطف هي الشعب والعقل هي إدارة تلك العواطف وتسيرها نحو الأحسن والأفضل، فلا يمكن التخلي عن العواطف، ولكن لابد أن يتسيد العقل.

لعل هذه الكلمات والشعارات كثيراً ما تتكرر، فكم سمعنا بمطالبات الفلاسفة بالتعقل وأخذ الحكمة دون عنجهية القلب وعشوائيته، ولكن تلك العواطف عندما يبلغ الضرر أوجه جراء عاطفتها تسأل: كيف نتعقل؟ وكيف ننشر التعقل؟ ثم يأتي العقل البسيط بمعطياته الأولية، كيف نحدد ما هو معقول وما هو منطقي؟ أرأيت

عزيزي كم هي سهلة عندما نطلب الشيء ولكن كيفية الحصول على المطلوب هو الصعب، يطلب القساوسة منا ألا نحسد و ألا نحقد على بعضنا البعض، ولكن الكثير منا يقر بجمال وزخرف الواجب والمستحب، ولكن كيف لا أحقد ولا أحسد، يطلب منا "بوذا" بأن نحب الناس كلهم، وكذلك يقول "ماو تي" ولكن كيف أحب من قتل أبي وأخي ومن قتل أهلي ومن سلب حقي ومنعني من ابسط معايير السعادة؟ يقول "لاوتسو" عامل الناس كلهم على انهم خيرون، ولكن كيف ونفسي تأبى أن أعامل من اغتصب البنت البريئة الطفلة وأضاع مستقبلها بنفس المعاملة مع "غاندي" أو "مانديلا" و" لوثر كنج" وغيرهم ممن ناضلوا بحياتهم من أجل العدل والمساواة؟ مطلوب مني أن أحب الأهل والأصدقاء والمجتمع وأن أدفع الصدقات للفقراء وأدافع عنهم وأن آمر بالمعروف وانهى عن المنكر ولا انظر نظرة ريبة وشهوة وألا أكذب وألا أحسد أو أنافق أو.. أو .. أو .. مطلوب مني أن أكون معصوماً، كم هي جميلة هذه الكلمات، ولكن كيف أصبح كذلك؟

الوسيلة هي موضع البحث، وليست الفكرة المطلوبة، الطريقة الفعلية هي العلة لتحقق المطلوب ولذلك كان يجب على الدعاة والفلاسفة والقادة "المثاليين" أن يبحثوا عن الوسيلة وتفاصيلها كمطلب عام، ولكن يجب العلم أيضاً بأن الوسيلة في عالم الإنسانيات قد تختلف

من شخص لآخر، من بيئة لأخرى، من مجتمع لآخر، ولكن الأهم من هذا كله أن توصل هذه الوسيلة أو الوسائل إلى الهدف المطلوب، وقد قيل إن النبي موسى صادف رجلاً بدوياً كان يتعبد، فاقترب منه وإذا به يستمع إلى العابد يخاطب ربه بكلمات ساذجة وكأنه يعاتب أباه أو عمه، وكانت الكلمات -بنظر موسى- لا تليق بالرب خالق السماوات والأرض، فأراد النبيُ نهي العابد عن استخدام هذه الكلمات، ولكن أوحي للنبي موسى من قبل الرب: بأن لا تفعل ذلك يا موسى، لأن هذا العبد يعجز عن التعبير نعم ولكنه بتلك الكلمات التي تعبر عن نيته البسيطة قد أوصلته إلى مقام الأولياء!. فهذا النبي العظيم كان اعتبر كلمات خطاب هذا العبد كفراً وتطاولاً، ولكنَّ الربَ كان يعتبر ذلك الأسلوب لا بأس به مادام العبد قد وصل إلى مرحلة اليقين. فالهدفُ أهمَّ من الوسيلة، صدق ميكافيلي في هذا ولكنه لم يصدقْ في تحديد أهمية الأهداف التي هي أهم من الوسائل، ويا لمصيبة الناس! مختلفين ومتنازعين في الأهداف وتحديد أي الاهداف أصح، فضلاً عن تحديد الوسائل، ولكن نشكر الله لو أننا اتفقنا على أن روح المبدأ أهم من نصه، بمعنى أن هدفَ الفكرة أهم من الوسيلة.

مهما يكن من قصة هذا الصراع فلسفياً ومذهبياً، نجد أن صراع القلب والعقل في ساحة صدر "زاهرا" نتج عنه انتصار العقل وتسيده، فلم

تُبدِ أي عداوة أو كره تعميمي على الحارس الطيب، فكبتت حقدَها وربطت لسانها، لكنَّ الدموعَ لا يوقفها أحد، مما كسر قلب الحارس، فطلب الاعتذار وكرر بأنه لم يقصد شيئاً، ولكنها قالت: لا عليك، لا بأس، الذنب ليس ذنبك، ولكن هل لي أن أعرف بصراحة، ماذا تريدون؟

فأجاب الجندي: لم نكن نريد إلا إخضاع السحرة والدجالين الذين يستغلُّون عقول الناس وبراءتها ليكدِّسوا كنوزاً وأموالاً بعنوان الصدقة، نريد محاربة من يستغل الدين من أجل دنياه.

أليس هذا الهدف بنبيل وأنبل الأهداف؟ فالدينُ المسكِن لآلام القهر والظروف القاسية، والمشجع على فعل الأشياء النبيلة والعظيمة، ورد جميل الإله الذي خلق كل شيء. هذا الدين الذي أهم كلماته و وصاياه: لا تسب، لا تسرق، لا تقتل، لا تحسد.. ويدعو إلى حبِّ الناس والعطف على الحيوان والرفق بالفقراء و.. يُستغل هكذا من قبل طبقة تتشكل على شكل المتدينين وتتظاهر بأنها الأولى في الدين من غيرها وكأنَّ الدين أُرسل لطبقة معينة أو إلى نَسَبٍ أو قبيلة محددة أو شعب مختار دون باقي الناس، وكأنَّ الدين جاء ليشَّرف شخصا دون شخص - وفي وقت إن أهم عنوان للدين هو الناس سواسية-، فخلق لهم ديناً صار هدفه إغناء وتشريف وتقديس طبقة معينة دون أخرى. وبدل أن يزيد

من الطبقة الوسطى وسدٌ حاجة الفقراء من فائض الأغنياء يريد نزع الأموال وتمليكها للطبقة "المتقدسة" وتصدير مقولة "القناعة كنز لا يفنى" للفقراء المساكين، وأن الاعتراض على القدر والنصيب اعتراض على الإله وميكائيل مقسم الرزق! فيُعَدُّ ذلك كفراً ومن يكفر يستحق النفي والقتل وهدر الدماء والسب والحقد عليهم وطردهم وهجرهم والعبوس في وجوه المعترضين.. !!! والدين يوصي في نصوصه فضلاً عن روحه بتعميم المودة والخلق الطيب وتمني الخير للناس، ويروى بأن الحسين الشهيد عندما رأى الجموعَ التي تهم بقتله بكى، فقيل له: أتبكي وأنت في هذا الموقف الذي يطلب إظهار الشجاعة؟ فقال: إني لا أبكي على حالي ولكن أبكي لحال تلك الجموع التي ستُعاقب من أجل اقترافها ذنبَ قتلي، ولكن أين هؤلاء الكهنة والحسين؟

تلك الطبقة تظنُّ بأن الدين يُورَّث أيضاً، ويتعلق بالكلمات المنطوقة دون الروح والخلق الحسن، فالمسيحيُّ بمجرد تقليد حركات المسيحيين يكون مسيحياً وإن كان يكذب ويزني ويسرق ويفعل السوء، رغم أن كل وصايا المسيح عبارة عن الصدق والاتزان وعدم السرقة وفعل الخير، والمسلمُ يظن أن من يتلقلق باللسان وينطق بكلمات معينة - مسايرة وتقليداً لآبائه و جماعته ويقلِّد حركاتهم في طقوسهم- يُصبح مسلماً، و إن كان يحسدُ وينافق ويحب ان يكون الشر لغيره ويستغيبُ

ويسبُّ ويشتمُ، في حين أن النبيَّ محمد جاء يدعو من أجل الخُلُق الحسن وألا يحسد الإنسان مطلقاً ولا يشتم ولا يستغيب وأنَّ الناس سواسيةً وأخوة في الإنسانية، ولكن تلك الطبقةَ لا تريد من ذلك الدين ان تستولي هذه الدعوات على قلوب المؤمنين لأجل إصلاحهم وسعادتهم، بل تريد من هذا الدين التلفيق فيه واللعب بكلماته من أجل تقديس نفسها، وتشريفها، فتُسَطِّر الأساطير الدينية بأنهم خلفاءُ الله في الأرض، وهم قطبُ الرحى الذي يجب أن تدور إليهم الأخماس والأعشار والصدقات والزكوات، واليهم ينتهي الشرف والقدسية والنبل، فيالهول مصرع الدين بأيدي هؤلاء المتدينين، ثم يمنعون دخول الغير في دائرتهم، فالأعجمي متآمر على الدين، والذي لا يعتقد بأن فلانا خليفة النبي يجب أن يُشتَم ويطرد، والمبتلي بالذنوب تحرم معاشرته لا يريدون هدايته ولا مساعدته رغم كون انتشار تلك الذنوب والتهم في المتدينين أنفسهم، كل ما في الأمر أن هؤلاء في الستر والاخرين كُشِف أمرُهم، وكأنَّ الله تعالى يسترُ عليه تلك الذنوب منهم، ثم لا يجوز نزع تلك المناصب منهم لو كشف ذنبهم، فلا يريدون الاعتراف ولا يتنازلون أبداً عن سمعتهم فنحن نبقى الطبقة الفلانية، نحن السادة، نحن العلماء، نحن الكهنة، نحن البراهمة، نحن آل الله مهما أذنبنا ومهما عصينا. هذا هو دين الكهنة، لا يدخله أحد ولا يخرج منه أحد، لا حراك فيه

والشرف صار بالنسب والجماعة والمجتمع والقبيلة والأصل والفصل، وبات كلُّ المساوئ والدناءة والدناسة والحقارة في الغير، لم يقف الأمرُ عند حد الدنيا، بل هؤلاء سيحترقون في جهنم وبئس المصير ولا ترضى نفوسهم حتى بفترة طويلة بالعقاب الأخروي، بل يريدونها خالدة للغير.

جشع و أوهام وتلفيق وكذب ونفاق وحقد وادعاءات وهمية في هؤلاء الكهنة الدجالين، شوهوا الدين تشويهاً وجعلوا الناس تتصور أن الواسطةَ في معرفة الدين حكرٌ عليهم، دون اللجوء إلى العقل والفطرة البريئة، هؤلاء الدجالين كانوا مصائب الأمم، وسبباً في تخلف الإنسان في روحه ومادته، فكان يجبُ أن يحاربوا ويجب أن يُنتزعوا من مكانتهم المخادعة.

هذا هدفنا وهدف ملك الملوك من إرسال الحملة على كهنة آمون!!

هذا معنى ما قاله الجندي لـ"زاهرا"، خاطبت الإنسانية بلسانه فانطق مفصحاً عما عانته الإنسانية باسم الدين، فكان كلام الجندي كلام الإنسان وفطرته لا الإنسان وأنانيته المفرطة. و"زاهرا" كلها تستمع لهذه الكلمات الجميلة، رغم احتمال عدم فهمها لبعض التفاصيل، ولكنها وبعد صدمة خدرت مخها بدأت تكفر بما آمن به أهل الجنة، في أن هؤلاء هم الشياطين يريدون قتل الإنسانية، فترى أن هذا الجندي الذي

ينتمي إلى الجيش البربري! يتكلم بالإنسانية، ويريد قتل من قتل الإنسانية، فدخل الشك فارساً عظيماً في ميدان عقلها وإيمانها التقليدي، وبدأت تشك بكل ما كانت تؤمن به، لكونه ملقى من قبل طبقة (الكهنة) لديهم، وأن ما قاله الجندي في أوصاف الدجالين ينطبق على اللذين كانت تؤمن بأنهم من القديسين المعصومين، وقد وجدت على بعضهم تلك المساوئ التي يحاربها لسانهم، وتفعلها أيديهم، ولذلك بدأت تعمم الشك، فإن كان الشك في حقوقهم المالية فلماذا لا اشك في معتقداتهم؟

الشك وسيلة شريفة للإيمان، والتقليد والمسايرة طريقة غير معصومة ولا تضمن لنا صحة المعتقدات التقليدية التي نتلقاها من الآباء والمجتمع، وكم من شكاك في بدايته، انتهى ليكون معصوماً، وقديساً عالياً، وكم من مؤمن متظاهر بالإيمان صار في أسفل السافلين كإبليس وفي مقام الكافرين.

فأيدت "زاهرا" كلام الحارس ووافقته، وردَّ عليها قائلا: هذه مهمتنا وسوف نزيل هؤلاء الكهنة ونثبت للناس بأن قداستهم ونبلهم مجرد خداعة نصابة.

يالها من مهمة نبيلة من آل الشيطان وجيشه!! ما الذي حدث في فكر "زاهرا" لتؤيد هؤلاء الشياطين ضد أهل الجنة والفردوس الموعود؟ أكانت تعيش في خدعة؟ أم خدعها الرجل بكلماته العذبة؟ فكم من

حديث جميلٍ ذي رونق جذاب ولكنه في النهاية زخرف لا يتحرك.
الإجابة لا تزال مبكرة على ذلك، لأن الأمور لا تزال غامضة؟ لعل هؤلاء البرابرة -الذين فاجؤوا "زاهرا" بنبلهم- لا يعلمون بأمرهم، ويتهمون البريء اتهامات باطلة ومشوهة، وإن أصابوا في بعض الوقائع والأمور، ولذلك طرح الشك الذي اعتلى مخ "زاهرا" الاحتمالات المتساوية: قد نكون مخطئين في الحكم على الشيطان، وقد يكون الشيطان مخطأ في الحكم علينا، وقد نكون نحن الاثنان مخطئين معاً.

وبعد ذلك بوقت مجهول، أتم "رايجن" ورفاقه الاستعداد لتنفيذ خطة الهرب، وبطبيعة الحال كان أفضل الأوقات للهروب هو الوقت المخفي، أعني الليل، ولكن كيف والأسرى يوضعون في القفص ويحرسهم حراسٌ مدججين بأسلحة حديدية متطورة؟

كان مخيم الأسرى محاطاً بسور خشبي يدور حوله الحراس بتناوب منظم ومرتب، وكل مئة متر تقريباً يوجد برج فيه جندي يمسك ببوق الإنذار يتم النفخ فيه في حال حدوث أي مشكلة أو ضجة داخل مخيم الأسرى، فإذا حاول أحدهم الهرب -وقد رأى "رايجن" عدة محاولات فاشلة- يصرخ الجندي الذي كشف العملية مخبراً الجندي صاحب البوق فينفخ فيه ليعلم الحراس والفرسان بعملية الهرب، ويعلم

الحراس والجنود بجهة المشكلة من صوت البوق وفي أي زاوية، فتتم ملاحظة الهاربين أو البحث عنهم، وكان مصير الهارب هو الموت نحرا.

راقبَ الرفاقُ عمليات الهرب باحثين عن ثغرة يمكن من خلالها الفرار، واستطاع الباحثون الكشف عن نقطة ضعف، وهي انه في حال الإنذار يتجه اهتمامُ الجنود والعموم إلى جهة البوق، فينفروا جميعاً إلى ذلك الاتجاه ويبحثون عن الهارب، وعلى ذلك كانت الثغرة تعتمد على البوق وصوته، وتأثيره على توجيه الاهتمام، وكذلك يمكن أن يستخدم للتمويه، وهذا ما فكر فيه "رايجن" ووافقه الرفاق، فكان الهدف الأول من العملية، هو سرقة البوق من الحارس في البرج.

والبرجُ لم يكن معقداً وضخماً، بل كان متواضعاً ومناسباً للمكث القصير، حيث أن الجيش يرتحلُ بعد كل انتصار إلى منطقة أخرى، فليس من الجيد أن يركّز الحراسُ على عمل برجاً عظيماً، بل يكفي البرج الخشبي المرتفع قليلاً، المناسب لمهمة الإنذار والمراقبة القصيرة المدى.

وأخذ الرفاق يراقبون البرج وصاحبه وتحركاته المعتادة، فلم يجدوا منفذاً إلا وقت خروجه لقضاء حاجته، وليس كلُّ الحراس هكذا، فبعضُهم يأخذُ البوقَ معه، ولكن تم اختيار من وجدوه يكثر تركه للبوق عند قضاء الحاجة، فكانت الخطة تعتمد على أمل ألا يترك العادة، وعلى

توقيت مجهول وهو متى يذهب لقضاء الحاجة؟، فتم التخطيط لكل تلك الاحتمالات والاستعداد للحظة المطلوبة.

وفي يوم من أيام الشغل، ذهب أحد الحراس لقضاء الحاجة، ولم يرَ "رايجن" و"فيرون" و"بشير" البوق معه، مما يعني تركه في البرج، فأشار "رايجن" لـ"فيرون" بالاقتراب من البرج وافتعال شجاراً عنيفاً بينهما، و مع التصارع يدخلان داخل البرج بعنف وكان ذلك نتيجة للمصارعة، وقد تم ذلك، وبدأ الجنودُ يلتفتون إلى بداية الشجار، ثم حدثت التمثيليةُ وتصارع الطرفان وتدافعا نحو باب البرج فحطماه، وبدأ الحراسُ بالتوجّه إليهما لفكِّ النزاع، ودخلا البرج فأخذا يرميان بعضهما بالأغراض الموجودة في البرج، ومنها البوق، الذي رُمي خارج البرج بقوة، وكان "بشير" يراقب الأمر من الخارج مستعداً للتركيز على مكان البوق المحذوف، وهكذا بعد أن رُمي البوق في الخارج توجه "بشير" وسط انشغال العموم بالمشاجرة العنيفة ليأخذ البوق ويخفيه في مكان مناسب، ثم عاد بسرعة إلى موضع الشجار، وقد أُمسك بالرفيقين، وجاءهم الضابط الشديد، لينظر إلى وجوه مثيري المشكلة، وقلوب الرفاق الثلاثة كلها أمل على أن يتم اتخاذ عقاباً مناسباً للمشكلة ولا يصل مستوى العقاب إلى نحر المتشاجرين، وكان لهم ما تمنوه فأمر بجلدهم عشر جلدات ومنعهم من الطعام يوماً كاملاً وتم اتخاذ الحكم.

وانتظر الرفاق هدوء الأوضاع وموت الانتباه الموجه لـ "رايجن" و"فيرون" بعد المشاجرة، وقد لوحظ أن الحارس عندما عاد أخبر الضابط بضياع البوق، فطلب منه البحث حول البرج لعل المشاجرةَ أدَت إلى حذفه أو كسره أو ما شابه، ولكنه عجز، فأفرغ الضابطُ غضبَه وألقى لومَه على الحارس ووبخه لعدم أخذ البوق دائماً معه حتى أثناء قضاء الحاجة، فتمت معاقبةُ الحارس وتنحيتُه، وإبداله بآخر.

وهكذا تمت العملية وهي سرقة البوق، وبقيت الخطوات الأخرى، وسيبدأ الرفاق بها بعد هدوء الأوضاع.

أما "زاهرا" المحاربة على الجبهة الأخرى، فالغموض قد أخذ يمزق فضولها، وفي أحد أيام الأسر، كانت بحضور القائد الكبير، وأثار انتباهها سؤال القائد عن المراسلات بينه وبين شخص آخر أعظم منه!! ، وأخذت تركز في الحديث الذي دار بين القائد وأحد مساعديه:

القائد: ألم تصل أخبارٌ من الشاهنشاه؟

المستشار العسكري: لا سيدي، لقد أرسلنا مرتين إلى طيبة دون رد، والأشخاص الذين أرسلناهم في المرة الأولى يظهر أنهم ضاعوا أو أصابهم خطب، فأرسلنا أشخاصاً آخرين مع الرسائل مرة أخرى.

ثم يقول المستشار: سيدي ألا تشعر بأننا قد تعمقنا أكثر من اللازم، وقد طال بنا المسير إلى (واحة سيوا) أكثر من أشهر ووفق بيانات الأدلاء وخبراء الأرض فإن المسير من طيبة إلى المعبد لا يطول ثلاثة أيام!

القائدُ لا ينصت إلى إشكال المستشار، ثم يقول: لعلهم أخطؤوا، ولا بأس في ذلك، فقد حققنا انتصارات وغنائم أكثر مما توقعنا، وكلما توغلنا أكثر مع مسير النهر كثرت غنائمنا، وإني لأحب أن أرجع لمليكي ومعي مفاجأة إخضاع كهنة آمون ورقعة أرضية كبيرة تكون خاضعة كلها للإمبراطورية الآريانية!! وغنائم وسبايا لم تكن بالحسبان.

وهنا يرضخ المستشار لرغبة القائد، و"زاهرا" تركز على الأسماء الغريبة عليها: ممفيس، طيبة، واحة سيوا، الإمبراطورية الآريانية !!!

ثم تعود إلى مخدعها مع باقي المحضيات، وتعود لملاقاة الحارس، فتسأله:ما هي الإمبراطورية الآريانية؟؟ فقال ولعله يشفق على جهل الجاهلة ويفتخر بعلمه: عند بابل يسمونا "بارسوا"، ولعلك سمعت عن الفرس (يقصد الإمبراطورية الفارسية!!!) .. ثم يحدثها عن الفرس والإيرانيين القدماء وكيف قامت دولتهم. وهي تستمع وكلها استغراب من حديثه، أنه يتحدث عن أحداث قريبة العهد، هي لم تسمعها قط ولا آل "والكوت"، ولكن ما أثار ذاكرتها هو الاسم "كورش"، فقد بدأت تسترجع ذاكرتها لتتذكر بأنها قرأت كتاباً يذكر هذا الاسم، ثم سألت:

وهل كورش هذا هو القائد الذي رأيته؟ فضحك الحارس وقال: لا ، هـذا هو القائد "فارناسيس" صهر ابن كورش الذي هو الملك الحالي، شاهنشاه العالم، كامبيز .. هنا تذكرت بالفعل أنها قرأت هذه الأسماء وما ذكره من أحداث وأخبار في إحدى الكتب التي وجدتها في إحدى المدن الخربـة التي مرت بها قبيلتها قبيلة "الوالكوتيين" بها، وكانت الكتب موجـودة فـي القلعـة الـصغيرة التـي قبعـت مع ضـعاف القبيلـة فيهـا قبـل تمكـن الفرقـة العسكرية من اقتحامها، فطلبت من الجندي خدمة وهي التوجه إلى تلـك القلعة وجلب بعض الأغراض منها، وتقصد الكتب، ولكنَّ الجنـديَ شـك بالأمر وبدأ يظن بها ظن السوء، فبيّن لهـا صـعوبة الأمـر بدايـة لان مهمتـه هي حراسة محضيات القائـد. فأقـسمت عليـه وأكـدت لـه بأنهـا لا تنـوي الهرب، كيف وهي حامـل وزوجهـا قـد مـات وهنـا يُعتنـى بهـا وبحملهـا بشكل لـيس لـه مثيـل؟ وبعـد إلحـاح منهـا وافـق، ولكـن بـشرط الإسـراع بالمهمة خوفا من سطوة الـضباط الـذين يفوقونـه رتبـة، فطلـب مـن أحـد أصدقائه تغطية مكانه، وركب الفَرس و"زاهرا" وتوجها نحو القلعة.

دخلـت "زاهـرا" القلعـة وفيهـا ذكريـات قريبـة العهـد مـع حبيبهـا "رايجن" وتـسمع بـأذان الـذاكرة صـوته وأصـوات الأطفـال وصـديقاتها، فذرفت بعضَ الدمع، وتعاطف معها الجندي: لا بأس يا "زاهرا" إذا كانت طينته طيبة ونياته بريئة، فانه فـي الجنـة والفـردوس سعيدا. ردت "زاهـرا"

ساخرة من معايير الدنيا: أليست الجنة هنا؟ لقد أكمل "رايجن" مسيرة أجداده وأسلافه التي طالت مئات السنين، ليصل إلى الفردوس الموعود، ولكن النتيجة ماذا؟ مقتله وسبي أهله وأنا صرت محظية عند غيره! هنا أجاب الجندي إجابة قوية فقال: ومن قال أن الفردوس موجودة في هذه الأرض؟ أو في هذه الحياة وهذا الزمن؟ ومن قال إن جزاء وثواب الطيبين سيكون في هذه الحياة؟ ومن قال بأن المذنبين ينالون جزاءهم في هذه الأرض أيضاً؟

أخطأ الإنسان عندما أساء الظنَّ بإلهه لمجرد مسه لمصيبة ما، واهماً بأن صلاته وعبادته وقرابينه ستحسن حياته الدنيوية، أخطأ البابليون لأنهم اعتقدوا في أن قرابينهم وعطاياهم وحسناتهم للإله سيُرد جميلها بسرعة وفي هذه المعيشة الحاضرة، لا يا "زاهرا"، فكم من نبيل عاش أسوء المعيشات وأرذلها، وكم من حقير شرفه المجتمع والناس وعيشه أحسن المعايش؟ يا "زاهرا" إن الآلهة خلقتنا لتختبر الطيبَ من الخبيث، وتركته حراً في اختباره ليحدد جزاءه في حياته الأخروية، لا في الدنيا، ليميز الله المعدن الأبيض من الأسود، فلو أعطى اهراموزدا كل عبد مؤمن سعادة ومنع الخير عن الأشرار لَبطُلَ الاختبار، وكان الناسُ يعبدون الله كرها لهذه النتائج، ولكن الربَّ أراد أن يعبده الإنسان حراً مختاراً، أعطى السيادة لعقل الإنسان وقلبه، فتركه وهو يراقبه، وأرسل له إشارات

للإيمان، ثم أرسل إليه وحياً ورسالات ليعرِّفه على الطريق القويم والـذي بهـا يسعد سعادة خالـدة أبديـة، أراد الـرب للإنسان أن يكـون حـراً فـي عبادته لله، أراد الله أن يحبـه الإنسان، لا أن يكرهـه إجبـاراً علـى عبادتـه. هكذا تكلم زرادشت.

استمرت "زاهرا" تبحث بين أنقاض وخراب المكان، واقترب الليل وبـدأ الحـارسُ يـستعجل، وفـي الوقـت بـدل الـضائع وجـدت كتـاب "هيرودوت" وبعض الكتب الأخرى، فعـادا إلـى المعسكر، وعـادت هـي إلـى خيمتهـا شـاكرة الجنـدي علـى مـا قدمـه مـن مـساعدة، لتتفـرغ الآن للبحث.

و هكذا قامت الباحثة تسهر الليـالي وتقـوم فـي نهـار أيامهـا مبكـراً لتقرأ كلّ ما لديها، متذكرة بأن الأسماء التـي ذكرهـا الحـارس قـد مـرَّت عليها خلال قراءتها فـي كتـب التـاريخ، وفـي عمـق هـذا الفـضول سـؤال محير: وهو كيف؟

اكتـشفت "زاهـرا" معنـى التـاريخ المـيلادي مـن خـلال بحثهـا وتحليلها، ثم وجدت أن "هيرودوت" قد ولد في القرن الرابع تقريبـاً قبـل التاريخ الميلادي، وهو يذكر "كامبيز" و"كورش" وشعباً اسمه "الفُـرس" ، وهكذا وهي تقرأ تجد اسم ممفيس وطيبة وواحـة سـيوا، وقـد حـدث أن أرسل "كامبيز" جيشا من خمسين ألف جندي لإخضاع واحة سيوا، التـي

يكمن فيها معبد آمون، وفشل في ذلك، فهل "كامبيز" الحالي هو ملك مخلد يحاول مراراً وتكراراً السيطرة على واحة سيوا؟ ولم يفلح طول هذه السنين؟ عندما يجهل الإنسان تبدأ الأساطير.

تسأل "زاهرا" نفسها بعد أن تعرف بأن الفترة الممتدة بين الأحداث التاريخية التي تقرأها في هيرودوت وغيره كانت قبل آلاف السنين، فتجد غضاضة في تقبل خلود "كامبيز" ، فسألت حارس خيمتها: هل مليكك "كامبيز" شخص مخلد؟ ولكنه لم يفهم، فسألته كم عمره الآن؟ فأجاب: بأنه شاب لا يزال، وقد تولّى الحكم قبل عدة سنوات فقط!! أما هل سيخلد أو لا، لا أعلم بقرار الآلهة بعد.

الأجوبة التي يفترض أنها تساعد "زاهرا" على الاقتراب من الحقيقة صارت تبعدها أكثر، ما هذا؟ أشخاص مذكورين في أوراق وكتب مضى عليها آلاف السنين وذُكرت قبل ثلاثة آلاف عاما تقريباً ، ها هم أمامها يتحدثون عن نفس المهمات، وتتساءل: إن كانوا مخلدين فأينهم طول هذه الفترة، وكيف يعتقدون بأن الأحداث هذه لم يمر عليها أكثر من عشر سنوات؟!

تفكر ملياً، وبدأت تثير فضول الجندي الذي استغرب المعلومات أيضاً، ولكنه ظن بأن المكتوب كُتب في العهد القريب، ولعل الكاتب مشتبه أو كذاب، ولكنها تذكر بأن عدداً من المؤرخين يثبت الأحداث،

وهو إرسال "كامبيز" جيشاً لاحتلال واحة سيوا، فلا يعقل أنهم تعاقدوا على الكذب، ثم أنهم لا يكتفون بذكر هذه الأحداث، بل يذكرون ما حدث بعده! ، علامات تعجب على كلاهما، ولكنها مصرة على أن الجيش هو نفسه المذكور في الكتب، ولكن المشكلة تكمن في الزمن الفاصل بين المكتوب وما هو أمام مرمى العين.

نقل الجنديُّ هذه المعلومات إلى جندي آخر يحب حفظ الأخبار وأحداث الناس الكبرى، وكان الجندي هذا يؤمن بالخرافات التي حيكت حول كهنة آمون، وإن لهم قدرات سحرية خارقة، وزاد في مقدمات الاستنتاج أخبار الأدلاء بأن الجيش قد تاه، وأن المسير إلى واحة سيوا لا يزيد عن ثلاثة أيام، ولكنَّ الجيشَ سار قرابة الشهر وأكثر ولم يرَ الواحة بعد، فصدق الكلام بسرعة وقال: بأنَّ سحرة آمون استعملوا قدراتهم، فأرسلونا بسحرهم إلى التيه والمجهول، والدليل أن القائد أرسل الأشخاص مرتين للاتصال بممفيس، فضاع أولُهم ونحن نتظر الآخرين.

رجع الحارسُ إلى "زاهرا" وأخبرها بكلام الجندي الثاني، ولكنها قالت بأن الكهنة لدينا ليس لديهم هذه القدرات التي تتكلمون عنها، وأن الأوصاف الجديدة التي بدأتم تصفون بها كهنة آمون في واحة سيوا غير مشابهة بتاتاً لوجهائنا، بل إن وجهاءنا مجرد أشخاص لديهم علم بتاريخ

قـديم مجهـول، وهنـا وبعـد مبادلـة معلومـات، علمـوا بـأن زعمـاء آل "والكوت" والمدينة المحاصـرة ليسوا كهنـة آمـون، فـأين ذهبـت واحـة سيوا؟

تميزت مشكلة الزمن فـي بحـث "زاهـرا"، وزاد بحثها فـي الكتـب وراجعت ما يمكن مراجعته، وبطبيعة دماغ الإنسان عنـدما يفكـر بمـشكلة معينة، فإنه سيلتفت لأي شيء يتعلق بها، فمثلاً لو كان الإنسان جائعاً، فإنه عندما يقرأ سيلتفت بقوة إلى كلمات الأكل والطعام وهلـم جـرا، فكانـت مشكلة الزمن مسوغاً لتركيز ذهن "زاهرا" علـى كلمـات تتعلـق بهـا، ومـن مكارم الصدف الكثيرة على العلماء والباحثين والمخترعين، أنها صادفت مقـالا للعـالم الألمـاني "ألبـرت آينـشتاين" أو تعليقـة علـى نظريتـه حـول الزمن، لتجد فكرة منطقية تركب الجـزء المفقـود مـن المعادلـة المعقـدة، فـ"آينشتاين" أقـر بإمكانيـة الـسفر عبـر الـزمن، فكانـت هـذه النظريـة هـي الاحتمال الوحيد المناسب برأي "زاهرا"، فهذا جيش "كامبيز" أُرسل إلـى واحة سيوا، ولكنه سافر عبر الزمن إلى العهد الجليدي الحجري الجديـد. فقالت ذلك للجنديين وسألتهما: هل أصابكم شيء مميز أو خطب ما؟؟

فكرا ملياً، ثم قال أحدهما ملتفتا إلى الآخر: نعـم، العاصـفة الرمليـة في أول رحلتنا.

قال الآخر: نعم، وقد لاحظنا فرقا في الجو والناس وغير ذلك بعد هذه الحادثة، وكأننا انتقلنا من مكان الى مكان آخر مختلف.

رد الأول: كان الجوُ قبلَ العاصفة معتدلاً ولكن بعد نجاتنا من العاصفة بردَ المناخ، وأصبح مثلجاً، والناس اختلفت ملابسهم وملامحهم عن أهل مصر.

فقال الآخر: لعل هذه العاصفة هي السحر الملقى من قبل كهنة آمون وهو الذي أرسلنا إلى هنا.

وهكذا سلَّما بفكرة السفر عبر الزمن، وما ان انتهوا من تلك المباحثة فإذا هم يسمعون بوق الحرب، وهو عبارة عن إعلان عن هجمة أولية على القلعة، ففكرت "زاهرا" بأن كشفُ الحقيقة لقائد الجيش سوف يمنعُ دمار المدينة، وينقذ أهلَها من القتل والسبي، وأشفقت على أهل المدينة، ورغبت في منع إصابة القوم ما أصابها وأصاب "آل والكوت"، ولكي تفعل ذلك وجب أن يصدقها القائد، فهل سيصدقها؟

وهكذا أصبحت القصةُ تتمحور حول:

"زاهرا" تحاول إنقاذَ الناس عبر كشف الحقيقة للقائد.

"رايجن" يحاول الهرب على أمل بقاء "زاهرا" والقبيلة هناك راجياً إنقاذهم.

وكلاهما لا يعرف عن الآخر شيئاً.

# الفصل السادس

الفصل السادس:

# الاجتياح الأخير

حـان وقـتُ الهـرب، ومحاولـة إنقـاذ الأهـل إن كـانوا أحيـاءاً لا يزالون، فاستعدوا في إحدى الليـالي الدامـسة للهـرب، واسـتخدام البـوق، وكان الذي سيستخدم البوق سيكون فـي الموضـع الأخطـر فـي العمليـة، لأنه الحراس سيتوجهون اتجاه الصوت، فكـان لا بـد أن يكـون مـستخدم البوق بنفس المكان، وتتظاهر البقية بالنوم في خيمـتهم. وتقـدَّم "فيـرون" وطلب البوق، وغطاه بمعطفه وخرج مـن خيمتـه، وهـو متوجـه إلـى جهـة مغايرة لخيمتهم مظهراً المرض والإرهاق، وقد وضع في فمه بعـض المـاء -أو الحليب- ليُوهم الحارس بأنه قيء، فـسأله الحـارس وهـو فـي طريقـه مسرعاً: إلى أين؟ فبصق قليلاً من الحليـب علـى الجنـدي وقـال: أريـد أن أتقيء لا أعلم لماذا؟ لعل طاسة العشاء بالأمس كانت ملوثة، وهو يتظاهر بالرغبة بالتقيؤ، فاقشعر الحارسُ لحاله وقال: حسناً حسناً اذهب هيا أسرع، فابتعد إلى الجهة المناسـبة، وتظـاهر بـالتقيؤ معطيـاً ظهـره لجهـة الحـارس

الـذي لـم يهـتم لحالـه أو يـشك، وانتظـر اللحظـة الحاسـمة وهـي غفلـة للجندي، وعندما جـاءت أخـرج البـوق فـنفخ فيـه بقـوة، ثـم رمـى البـوق باتجاه العشب، والتفت إليـه الحـارس: مـا هـذا؟، فأشـار بأنـه رأى حركـة هنـاك! ، وعنـدما رمـى البـوق وسـقط فـي العـشب لاحـظ أحـدُ الحـراس الحركة فنفخ هو أيضا وأشار إلـى ذلـك الاتجـاه: هنـاك هنـاك، فمـشت اللعبة كما يشتهي وخرج الحراس باتجاه الـصوت، وطلـبَ الحـارسُ مـن "فيرون" ان يرجع إلى الخيمة وتوجه هـو مـسرعاً نحـو الجهـة المـشبوهة. وهكـذا حـدثت الـضجة المرغوبـة، وتـسلل "رايجـن" و"بـشير" سـابقين "فيرون"، ونجحا في الهرب، ثم انتظرا "فيرون" في تلة مناسبة، حتـى قـدم اصحابه ثم أكملوا مسير الهرب.

أما الحراس، وهم في بحثهم رأى الضابط الكريـه البـوق، فكـشف بأن العملية خدعةً، وطلب من الحراس بأن يرجعوا وأن يرجـع كـلٌّ أسـير إلى خيمتـه، ليـتم تعـدادهم، ففعلـوا ثـم كـشفوا بـأن "رايجـن" و"فيـرون" و"بشير" هم الذين هربوا وخدعوهم، فحفظها في قلبه.

توجَّه الرفاقُ مبتعدين عن المخيم والمعسكر، ومقتربين من موضـع القلعة الوالكوتية الصغيرة، وكلهم أمل بأنها لا تزال دون مس أو ضرر، و توجهوا بطريقة الالتفات احتياطاً وبحـذر تجتمـع معـه العجلـة والـشوق.. والأمل.

وبعد ساعة أو أكثر، وصلوا إلى القلعة الصغيرة، ويسود الهدوءُ المكانَ، فازداد خوفُهم، واقتربوا حتى دخلوا القلعة، فوجدوها خراباً مدمرة، فكانت الصدمة الحزينة، ولم يتمالكوا أنفسهم فانفجروا بالبكاء، وهم يمسكون بأشياء تتعلق بأحبائهم، ويشمون أغراضهم، وانتابهم اليأس، فلا جنة ولا أحباء ولا أهل ولا مستقر ولا حال ، فلما العيش؟ سقطوا من التعب والقنوط، وظلُّوا الليلَ كله منتحبين باكين.

وفي الصباح التالي وفي خيمة القائد العسكري الكبير، الجنرال الفارسي، الذي طلب اجتماع الضباط والمستشارين، وظهر له أن القلعة ضعيفة جدا حسب استطلاع المخبرين، فأعلن بأنه لا داع للانتظار أكثر مادامت العملية لا تتطلب وقتا اطولا، ووافقه الرجال، ليُنفخ في بوق الحرب، وتسمع "زاهرا" الصوت وتستعجلُ الأمر، ويترتبُ الجيشُ وطبولُ الحرب تقرع، فينهضُ "رايجن" ورفاقه، يسمعون أصواتُ أرجل الجيش والأرض تهتز، فينهض غاضباً مغضباً وكذلك من معه، فيتوجهون إلى القلعة الرئيسية لعلمهم بأنها الهدف.

واختار أهل القلعة الرئيسية القتال، فخرج رجالهم مسلحين، وتلاقى بهم "رايجن" واصحابه، وانضموا إليهم معتصبين بعصابة الانتقام بعيون حمراء مرهقة، لا تريد العيش، فكان الثلاثة أكثر حماسة من بين

كل الجيش المقاوم، لأن الخوف وروعة المنظر قد أهلك المقاومة، دون الثلاثة.

تتحضر المعركةُ غيرُ المتكافئة، ويترتَّب الجيش الجبار، مقابل الشرذمة الجديدة وأمامهم "رايجن" ورفيقيه، ورمقهم الضابط الذي كان يحرسهم وهو في الجهة المقابلة وعرفهم.

"زاهرا" تراقب من الخلف وكلها خوف مما ستصل إليه الأمور، فهي لا تحبُ القتل والدماء بفطرتها اللطيفة والسليمة، ولكنها لا تعرف كيف تصل إلى القائد وسط جنوده وزحمة الحماس لكنها قررت المغامرة، فدفعت بأحد الرجال وركبت فرسه، وتوجهت إلى قلب الجيش صارخة: أنا زوجة القائد "فارناسيس" .. أنا زوجة القائد "فارناسيس" والجيشُ يمررها مستغرباً ومتفاجئاً.

تبدأُ المعركةُ، وكانت سرعة انتهائها أسرعَ من المعركة الأولى، لصلابة "الوالكوتيين" مقارنة بأهل الفردوس! فقتل أغلبيتُهم، ولكن الثلاثةَ بقوا أحياءً وقد برزوا ذلك البروز المميز، وكعادة الفرس في إكرام الشجعان، أمسكوهم دون قتلهم، ليتركوا مصيرهم للقائد. فتمّ جلبُ الأسرى، وجاءهم الجنرال "فرناسيس" ليجد أبطال العدو في هذه المعركة هم أنفسهم الذين رآهم في المعركة الأولى، فسأل عنهم، كيف شاركوا في المعركة الثانية وقد هزمهم وأسرهم في المعركة الأولى

فتقدّم الضابطُ المشرفُ على الأسرى وقال بأنهم قد هربوا بالأمس، فأبدى الجنرال غضبه على الضابط وتذمره من تقاعسه عن الحراسة الصارمة، ثم ألتفت إلى "رايجن" وأصحابه، فحكم عليهم بالاعدام.

وتنفَس الصَحْبُ الصعداء وكأنهم يريدون الموت ويطلبونه، فتعجب الضابطُ منهم ولكنه مأمور بتنفيذ الإعدام، وطلب الجنرالُ إعدامَ كلَ الرجال الباقين وجلب رؤوسهم، ليرسلهم إلى مليكه "كامبيز" ويعلن عن تنفيذ مهمة إخضاع كهنة آمون ومعبدهم، وهو كذلك والجنود يرتبون الأسرى لإعدامهم، فإذا بـ"زاهرا" تقتحم الموقف، تصرخ: سيدي سيدي لا داع للقتل، لأن سكانَ هذه المدينة ليسوا بكهنة آمون، وواحة سيوا ليست هنا، أبدى الجنرالُ استغرابه، ومستشارُه ينظر لـ"زاهرا" وكأنه يطلبُ تفسيراً لبعض الغموض والشكوك التي اعترته اثناء الحملة العسكرية، فقد شكَّ بأنه فعلاً قد ضيع الطريق، وان شيئاً غريباً قد وقع بعد العاصفة الرملية، فقال الجنرال: ماذا تقولين؟

"زاهرا" تلقي بالنقاب لتجيب الجنرال، فيراها "رايجن" فتعلو وجهه علامات الفرح والعجب معاً، ما هذه المفاجئة الكبيرة، فناداها: زاهرا .. زاهرا.. ، تعرف "زاهرا" الصوت وتلتفت وهي ترجو ربها أن يكون صاحبُ الصوت المسموع هو من في بالها، حبيبَها وزوجَها، فتنظرُ إليه، وإذا بالسماء تستجيب، إنه "رايجن" ، سقطت من على الحصان وارتمت

عليه حاضنة إياه والدموع يختلط بعضها ببعض، يقبلان بعضهما البعض، والجنرال ينظر إليهم وكذلك الجيشُ، ثم يقول الجنرال: أهذا زوجك؟

"زاهرا" : نعم سيدي.

ثم تقول: سيدي لقد عرفتُ وجهتكم، وما هو هدفكم، وهو هدفٌ نبيل ونحن -(وهي تؤشر على زوجها ورفاقه)- نؤيد ما تهدفون إليه، ولكننا لسنا أهل واحة سيوا ولا هؤلاء الرجال من كهنة آمون.

إننا نختلفُ عنهم لغةً وعاداتٍ وتقاليد وشكلاً، وقد رأيتم أنتم أشكالَ المصريين من ممفيس وطيبة، وتعلمون أن أهلَ سيوا هم من المصريين وقد رأيتموهم بأمّ أعينكم فهل وجدتم فينا أوصافاً مطابقة.. وتستطرد "زاهرا" في المقارنة بين أوصاف المصريين وأوصافهم لتثبت للجنرال بأنهم مختلفون عن الذين يريدهم، وبدا الشك يغزو عقل الجنرال، ولكنه لا يريد قبول الأمر، ثم توجهت مسرعة إلى الحصان وقد حملت الكتبَ معها، فأخرجت المصادر وهي تؤشر هنا وهناك بين الصفحات على اسم "كامبيز" وفارس و "كورش العظيم" والأحداث السابقة، وتحاول أن تقنع الجنرالَ بالأمر، فيلتفتُ الجنرالُ لمستشاره الشكاك من قبل، وكأنَّه يقولُ ما رأيك؟ فيجيب المستشار: أعتقد أن في كلامها بعض المنطق، ولكن بعض الحاشية لم تكن تستهدف من الحملة إلا الغنائم والذهب الموجود في المعبد، فقال أحدُهم: سيدي، أمرنا

بدخول القلعة والمعبد، لنأخذ الذهب والغنائم، وما هذه المرأة إلا كذابة لإنقاذ زوجها العبد المجرم، فترد "زاهرا" : لم أكن أعلمُ أن زوجي حي أصلاً، وقد بدأت بطرح الأمر قبل رؤيتي لزوجي، واسأل حارسي الشخصي وهي تؤشر عليه، وقد هزَّ رأسه مؤيداً لكلامها، ولكنَّ الجنرال أمر بدخول القلعة لاكتشاف بعض الحقائق، وأخذ الجنرالُ يتهامس مع المستشار: هل فعلاً أضعنا الطريق؟

نادى الجنرالُ الأدلاء مرة أخرى، وسألهم بغضب: هل أضعتم الطريق؟؟ فأجابوه خوفاً من العقاب: لا، هذا معبد آمون حسب ما نعرفه، تصرخ "زاهرا" عليهم وتقول أرسل إلى ممفيس أو إلى بابل، لتجد الثلوج والصقيع قد غطاها جميعا، وهي تدافع عن رأيها وتقنع الجنرال الذي بدأ يشك صراحة فإذا بخبر وصول الرسل الذين أرسلهم ثانيا إلى ممفيس، وقد تأخروا.

أحدُ الجندِ يقتحم المنظر: سيدي الجنرال .. قد وصل الرسلُ من ممفيس.

يلتفتُ الجنرالُ إلى "زاهرا": سأمهلكِ حتى أسمعَ خبر الرسل، ولكن أقسم لأن كنت تكذبين علي وتمارسين الخدع لأعذبنَّ زوجَك أمامَك وأُجهضن حملكِ، ثم استقبل الرسُل، ليكشفوا له ما رؤوا من عجاب!

الجنرال: ماذا حدث؟ وهل لقيتم الملك؟ أو وصلتم طيبة؟

صمتٌ يعم الرسل، الجنرال: ما بكم؟ ألا تنطقون؟

احد الرسل: لقد اختفت المملكة!

الجنرال: ماذا؟

الرسل: لقد وصلنا إلى طيبة فلم نجد إلا آثاراً خربة، مدينة مهجورة، ثم واصلنا الطريق إلى ممفيس، لنجدها مختلفة تماماً عما رأيناها قبل سنة تقريباً، ثم واصلنا المسير حتى الصحراء العربية (سيناء) كما كنا نسميها صحراء، لنجد الثلجَ يغطي الأرض فلا يحيى فيها ميتٌ ولا يعيش فيها حي، واستفسرنا كثيراً عن بابل، فلم يعرفها أحد، و عرفنا بأنهاسميت العراق فيما بعد، فأجابوا بأن ما بعد هذه المنقطة (أي سيناء) ليس هناك إلا الصقيع والثلج، ولا حياة.

وقعت الأخبار كالفاجعة على الجيش، ومطابقة لأقوال "زاهرا"، فألتفت الجنرال لمستشاره وقال: ما هذا الأمر؟ أجاب المستشار: لقد كنت شاكّاً باختلاف الأمور وعدم منطقية ما نشاهدُه في هذه الحملة، وإني أرى أننا لم نصب الهدف وأن هؤلاء بالفعل ليسوا كهنة آمون، والأدلاء قد كذبوا، فرجع إلى الأدلاء وقد انتابهم الخوف فسألهم بصوت مغضب قائلاً: هل أنتم متأكدون من الأماكن؟ فكان جوابهم السكوت والخجل.

الجنرال: لأقتلنَّكم سبع مرات، ضيعتمونا طوال الاشهر الطويلة ونحن نتوغل في المجهول دون أن تتحدثوا .. وأنتم تدرون كم عانينا من جراء هذه الحملة.

فأجاب أحدُ الأدلاء: سيدي قد أوصلناك إلى واحة سيوا ونحن متأكدون من ذلك، و لكنّا وجدناها مختفيةً ،وكانت حماستُك مانعةً من أن نكشف الأمر خوفا من الإحباط والتنفيس عن ذلك الإحباط بإضرارنا.

قاطعهم الجنرال: ومن قال لكم إني كنتُ متخذاً حكماً جائراً بحقكم لو قلتم الحقيقة من البداية؟ أضعتمونا وأرهقتمونا لمجرد افتراض وجبن، أيها الحراس خذوهم.

فأخذوهم، ثم توجه إلى المستشار: ما رأيك؟

المستشار: لنرَ ما تقول هذه الفتاة، لعلها تعلمُ بأشياء قد تفيدنا.

يتوجه الجنرالُ إلى الفتاة: قد تبين صدقُ كلامك المر بصراحة، وقد عفونا عن أهلك، ولكن تكلمي عن الموضوع المريب هذا، أفيدينا مما لديك.

"زاهرا": سيدي، إنَّ كهنةَ آمون كما في الكتاب المذكور عندي ذكروا بأنّ آلهتهم أرسلوا ريحاً صرصاراً عليكم وأنتم متوجهون إليهم، وبعد هذه الرياح العاتية تمَّ اختفاءُ جيشكم.

الجنرال: بالفعل تعرضنا لعاصفة رملية عنيفة، ولكن ماذا يفسر اختفاء مملكتي وأوطاننا؟

"زاهرا": سيدي، إن حملتكم هذه وفق الكُتب التي لدي كانت قبل ألفين وخمسمائة سنة تقريبا!!!

يستغرب الجنرال ومعه المستشار وباقي الجنود وكذلك "رايجن" وباقي الرجال: ماذا تقولين؟

"زاهرا": يظهرُ أنَّ كهنة آمون كانت لديهم القدرة ُعلى طردِكم من الزمن، فاستعملوا سحرهم وقدرتهم وأرسلوا الرياح، وكانت الرياح أداة لعملية النقل لزمن بعيد عن زمنكم، فاختفيتم طوالَ هذه السنين لتظهروا الآن، وأنتم لا تعلمون بأنكم انتقلتم زمنياً، وأكملتم مسيرتكم العسكرية مخضعين الناس ومجتاحين الأراضي ظناً منكم أنهم من الأعداء.

ثم يظهر أحدُ الجنود ليتكلم عما سمعه فعلاً عن كهنة آمون وسحرهم العجيب ولم يستبعد حدوث مثل هذا الأمر، ولعل طقوس الكهنة قبل ألفي سنة تقريباً مجرد مصادفة لحادثة كونية حدثت اتفاقاً مع زمن الحملة، فسافروا عبر الزمن في لحظة شعروا بأنهم ناموا يوماً واحداً فقط. (حالهم حال اهل الكهف).

وهكذا تَعرفَ الجيشُ على القوم البريئين، وعفا عنهم القائدُ بعد أن عرف أنهم ليسوا المستهدفين (كهنة آمون الدجالين) وأُمر بتركهم، واقترح الجندي الحارس الذي كان يحرس "زاهرا" عليها وعلى زوجها ورفاقها أن يرافقوا الجيش، وكشف لـ"فيرون" و"بشير" عن وجود أحبائهم أيضاً في الأسر، وقد تم تحريرهم جميعاً، وقبل "آل والكوت" الانضمام إلى الفُرس، وهكذا تعرَّف الطرفان على بعضهم البعض، وتحسنت الأحكامُ، وتطيبت الظنون. وأني لأجزم بأنه لو فعل الناسُ كذلك قبل الحكم على الآخرين لوفروا دماءاً وجهوداً، وأنقذوا أراملهم وأيتامهم ورجالهم الشهداء، بل وأنقذوا كل الناس، لكنها الأنانية التي تعبدُ النفس وترغب في جعل الآخرين عبيداً لها، الأنانية التي تقسِّم الناس إلى من ينتمي إلي ومن لا ينتمي، إلى القريب مني والبعيد، معتمدا على مشابهات اسمية أو معنوية أو غيرها، ثم تقسِّم القريب إلى الأقرب فالأقرب، فتجعل كل الشرف والمميزات الجيدة والممتازة في القريب والأقرب فالأقرب، حتى يتبقى اثنين، (أنا) و(هو)، فتحصر الأشرف والأفضل والأحسن في (الأنا) وتظنّ كلّ السوء في الآخر، وطبعاً العمليةُ تكون تحت دائرة الإمكان، فمثلا لا يقدر شخص أن ينال شرفاً معيناً، ولنفترض أنه عجز عن القدح في هذا التشريف، فيحاول أن يلتف عليه فيبرر عدم تشرفه مثلا بظروف خاصة، أو يلصق الشرف بقريب منه،

فيكون له حصةً من الشرف دون استحقاق في الحقيقة، أو أنه يتظاهر بأنه مستحق ولكنَّ الظروفَ منعته، فمهما يكن فانه معصوم في قرارة نفسه من الذنب، وما الذنوب ألا نتيجة للظروف الطارئة، وهو شريف كل الشرف.

هذه الأنانية خلقت حواجز بين الجماعات، ومنعت الاحتكاكَ مع الذين لا يقربون بصلة مع الـ(أنا)، لأنَّ الأنانيةَ لا تريدُ التعرّفَ عليهم لعل في ذلك إسقاطاً لبعض التهم، بل بالتجربة ثبت أن الكثيرُ من التهم والتشويهات التي خلقتها واصطنعتها الأنانية تسقط بالاحتكاك الاجتماعي، ووضوح الصورة الحقيقية للآخر يعني عدم تميزهم عن نوع جماعة (الأنا) فسيكونون بشراً مثلنا، حالهم حالنا، فكلما زاد الاحتكاك قل التمايز، وهذا التمايز هو عز الانانية، وعليه فإن الانانية تريد بقاء التمايز، فتمنع الاحتكاك وتعيقه.

الأنانية اللاغية، المفرطة، الجشعة، الجاهلة، هي التي تُبعدُ الناسَ على أساس التشابه والاقتراب كما بينا، ثم تتكون الشعوب والقبائل، والجماعات والطبقات والفرق و.. و.. و..، ويحدث الانقسام الاجتماعي، وتكون دائرة الشرف على (الأنا)، فالدائرة الاجتماعية القريبة منها سوف تكون موضع جهد النفس المغلوبة واجتهادها لجعلها الافضل.

هذه القوة النفسية المتجرية على الخط الطبيعي هي التي توهم وتصنع أسطورة الشرف المنحصر، سواء بالتحقق أو التبرير، ومع الوقت

وبامتناع الاحتكاك مع الجماعات التي لا تقرب للـ(أنا) وبفعل هذه الأنانية يُساء الظنُّ بالجماعات الأخرى، وتكون أساطير الـ(لولو) و الصقالبة والعبيد و العجم المتآمر و الكرد أبناء الجن و .. و.. و.. ، وتجعل من لا ينتمي إلى مذهبي مشكوكاً في نسبه! وابن زنا وحرام، وترى دائماً الظن الأناني يأخذ مجرى الحذر والخوف من (هم)، ويتعامل على أن الـ(هم) لا يريدون ألا الشر بالـ(نحن) و الـ(أنا)، وينتظر أي زلة أو جملة رنانة تبرر وهمه هذا، ولا يُعجبُ الأنانيةُ تحسّنَ العلاقات مع (هم)، سواءُ أكان الـ(هم) شعباً أو قبيلة أو طبقة أو جماعة أو حتى فريق كرة قدم، بل أكثر من ذلك، حتى في جماعات الأذواق، فإن اختلفت الأذواق وتكونت الجماعات الذوقية فمن يحب البرتقال سيسئ الظن ويبحث عن أي قدح ضد من يحب التفاح.

هذه الشعوب والقبائل والجماعات وكل (هم) و(نحن) كم عانت من جراء التباعد الذي خلق الظن السيء والأساطير التي شوَّهت الأطراف؟ كم عانت من حروب وتطاحن على أسباب تافهة كانت كبش الفداء لتنفيس العنصرية والعصبية، حتى صار التسابق بين فرسين أو مقتل ناقة سببا في حروب طالت أربعين سنة!! وفي الحقيقة لم تكن الحربُ لتلك العلل التافهة، بل العصبية الأنانية -(من خلق أسطورة وشرف الحمية القبيلة)- هي المسوغ الأساسيُّ ولكنَّ الطبيعةَ الإنسانيةَ

تعشقُ تبريرَ الأفعال، ولولا وجود عامل الملل وظروف التعب من الحرب الطاحنة لاستمَّرت ألفَ سنة أخرى، وفي الحقيقة الحربُ مستمرة فيما إذا لم نعتبر العداوة محصورة بالأسلحة والقتال، ولا زلنا نعاني منها، فهناك الغربُ والشرق والعرب والعجم والأجانب والمسلمون والكفارُ والشيعةُ والسنةُ والجماعةُ المتدينةُ وجماعةُ الروكِ والأغنياءُ والفقراءُ والكاثوليك والبروستانت والميلاني والانترناسيونالي وحتى الرجال والنساء والقيسية والمضرية والقحطاني والعدناني والبدوي والحضري والصلبي والعجمي والسيد والعامي و الشيرازي والخامنه أي واليابانيون والكوريون والأمريكان والهنودُ الحمر و.. و.. و...

كانت الأنانيةُ مرجعاً في تقسيم كل تلك الانقسامات، وعملها متمثل أولاً: تشريف الجماعة القريبة (نحن)، وتسقيط الجماعة الأخرى (هم). ثم تمنع أيّ احتكاكٍ وتأبى أي تعارف، للسبب الذي قلناه.

لماذا لا ترضى الأنانية بتشريف الغير؟ لماذا لا تسمح بأيٍّ تنازل؟ الجواب هو لأنها اختارت عبادةَ نفسها وهواها، فهي ليست مميزةً، فكم من عقل أو وحي رفض وجود التميز، وكم دحضت وجود هذه التميز الأبحاث البيولوجية، وكم مرة قررت الانثروبولوجية ان تميُّز النسب أو العرق أو الجماعات مجرد اسطورة، وكم نهى الرب في التوراة والإنجيل والقرآن عن معاملة الناس معاملة غير متساوية، وأنكر وجودَ

الانقسام الحقيقي، وأنَّ الكلَّ مردَّه آدم وآدم من تراب، وكلُّ المصلحين من أنبياء و أولياء وغيرهم من موسى واليسوع ومحمد وبوذا وكونفوشيوس ولاو تسو و ماوتي و زرادشت و القديسين كلُهم دعوا إلى نبذ التفريق بين الناس ومعاملتهم كأسنان المشط، لأنهم تكلموا بفطرتهم السليمة، وتعرفوا على حقارة الأنانية المتعدية وخطورتها على الناس ومعاناة الأبرياء منها على مدى التاريخ منذ مقتل هابيل على يد أخيه، بل منذ امتناع إبليس عن السجود لآدم، فذهبت عبادة سيد الملائكة هباءاً منثوراً بسبب أنانيته، فقال (أنا) خلقتني من النار و(هو) خلقته من الطين فكيف اسجد له؟؟!!

عبادة الأنا هي المصيبة الكبرى، والجبهة التي حارب فيها الوحيُ والعقل والفطرة السليمة وهي العدو اللدود، وهي مردُّ معاناة البشرية، وظلم الأبرياء، ولا يخدعنك مظهرُ هؤلاء العصبيين والعنصريين بظاهر التعقل أو التدين أو التقدُّس وعبادة الله وتقديس العقل والفطرة، وحتى لا تغرنَّك دعواتُهم وشعاراتهم المعلنة، لأنَّ المعركةَ والحقيقةَ هي في قرارة النفس، وفي القلب.

وصدق الربُّ عندما قال (وخلقناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) فهو يعلمُ بأنَّ الشعوبَ والقبائلَ أمور طبيعية، وعلم بدور الأنانية كيف تخلق التهم والأساطير الـ(نحن) والـ(هم)، فأمرهم بالتعارف، لأنه التعارف

بالانفتاح سيتعرَّف الناسُ على غيرهم ويعلمون أن كلَّ تلك الاتهامات كانت أوهام وأساطيرَ خلقتها الأنانية، أنظر إلى كل المجتمعات المنفتحة والتي يكثر فيها الاختلاط بين المذاهب والأفكار المختلفة، لتجد أن تلك المناطق يقلُّ فيها معدَّل العنف-إلا اذا حرضت من الخارج من الجماعات المنغلقة-، بخلاف المجتمعات المنغلقة والتي يقلُّ فيها الاختلاط، ومرَّد ذلك هو أن في المجتمعات المنفتحة والمختلطة تعارف الناس بمختلف طوائفهم وعرفوا أنه لا ميزة فعلية لجماعتهم عن جماعة أخرى لا تنتمي إليهم، وأنَّ الكثيرَ من الاتهامات التي تتمحورُ حول المؤامرة والنية السيئة والتربص للـ(نحن) اتهاماتٌ ليست دقيقة، وإنَّ الكثير منهم أبرياء ولا يريدون إلا الخير لكلِّ الناس ولكن التعبير خانهم ولم يستطيعوا التعبير بالشكل الصحيح، يجب على الناس أن ينفتحوا على أذهانهم، وأن يقللوا من عبوديتهم للأنانية ويتحرروا قليلاً بإنسانيتهم ويتعرفوا بصورة موضوعية على أفكار ونوايا الآخرين بلسان الآخرين أنفسهم وخاصة المتعقلين منهم والذين خالطوا الناس بمختلف أطيافهم ومذاهبهم.الانفتاح على الآخر وسيلةٌ للتعايش السلمي، عدم الرضوخ للأنانية عمليةٌ لا بد منها إذا أرادَ الإنسانُ إنقاذَ (نفسه) وأهله والأجيال التي ستأتي من المصايب والبلايا والمعاناة التي طالما عانى الإنسان منها، هناك جيشان في قلب كل إنسان: الأنانية والإنسانية.

الإنسانية هي عندما يحتك الإنسان بالـ(هـم) ويتأمـل بفطـرة سـليمة بريئة مـن شـوائب الأنانيـة ومعاييرهـا مـدعوما بـالمنطق وإن أراد بـالوحي السماوي فانه سيجد بأنه مثلُ أخيه الإنسان الآخـر، بـل لا فـرق بينـه وبـين باقي المخلوقات إلا إذا تميز بالأخلاق والعلم والمعرفة، وهـذه الأخـلاقُ أوالمعرفةُ تجر الإنسانَ إلى إنـسانيته، وسـيلاحظ أن الـ(هـم) هـو (نحـن) ولكن التعابيرَ اختلفت، والظروفُ غيَّـرت شـكلياتٍ غيـر جوهريـةٍ، وهـي تبقى شـكليات إنـسانية، وليـست وحـشية، "حـامورابي" عنـدما قنّن تلـك القوانين (الوحشية) لم يكن يقصد إلا الاستقرارَ في المجتمع، "بـوذا" لـم يكن يدعو إلا إلى السلام الروحي، والسيدُ المسيحُ كان يريـدُ أن يمـسحَ بيديه الاعجازيتين على صدور كلِّ الناس ليخرجهم مـن ظلمـات الأنانيـة إلى نور الإنسانية، والتي هي بعينهـا إن تحققـت تتحقـق معهـا عـوديـة الله تعالى، ونيرفانا بوذا، وتاوية لاو تسو ، و يقين النبي محمد .. بهـا سـيتحقق مسايرة قوانين الكون فيسعد الناس كلهم ويتنعموا بالسلام.

التعرّفُ على (هم) عملية لا بد منها، وهي التي ستنقذ الناس كلهـم كما أنقذت "آل والكوت" وأهلُ الفـردوسِ الـضائع، وهـي التـي أوقفـت اجتياحَ الجيشِ الجبار، وعندما تعرف هـذا الجيش على عـدوه والعـدو على هـذا الجـيش انعـدم القتـلُ والتعـذيبُ والـدمارُ. وهـي دعـوةُ الأنبيـاء الإنسانيةُ، فالإمامُ عليٍّ لا ينفكُّ يدعو في كل محفل اجتماعيٍّ إلى مساواة

المعاملة بين الناس، سواءاً كان ابن محمد أو ابن أبعد الأباعد عن محمد، فكان يقول تعليقاً على الآية القرآنية (إنَّ أولى الناس بإبراهيم الذين آمنوا ..) إن أولى الناس بمحمد الذين آمنوا به وان بَعُدت قرابته، وأبعد الناس عن محمد الذين عصوه وان قُربَت قرابتُه. وما الإيمان بمحمد إلا إيمان بالإنسانية، ألم يقل الإمامُ علي: إن لم يكن أخوك في الدين فهو أخوك في الإنسانية. فانظر بجمع تلك المقولات فإنك ستجد مَنْ كان إنساناً منفتحاً يُصبح بعملِه هذا مؤمناً بكلام محمد، فيكون كسلمان الذي جاء من بلاد إيران وصار من أهل بيت النبي القرشي! وأبو لهب عم الرسول(ص) سيحمل ناراً ذات لهب، وهذا ابن نوح صار من غير أهله بسبب عمله المخالف لعقيدة أبيه البيولوجي، فآل محمدٍ هم آلُ الإنسانية، آل الانفتاح.

"زاهرا" تعرفت على المدمرين المفسدين ..الخ ، كان مرجعَ تلك الصورة السيئة هو الجهلُ، فعندما احتكت "زاهرا" فيهم وتعرفت على النوايا وجدتهم من جوهر (الإنسان) ولكنهم أيضاً جهلوا بمعدن أعدائهم، وتوهموا أنهم كهنةُ آمون، وكم منا يتوهم بأنَّ الذي لا يقرب إليه ولا ينتمي -حسب تصوره- إلى جماعة الـ(أنا) مثلُ كهنة آمون؟ كم منا يعتبر المعميين ككهنة آمون؟ كم منا يعتبر القساوسة والآباء ككهنة آمون؟ كم منا يظُنّ بأنَّ كل عالم دينٍ لا ينتمي لدينه ككهنة آمون؟ ولا

يتقبلُ فكرة أنَّ هؤلاء بمذاهبهم واختلاف أديانهم كانوا يهدفون إلى هدف نبيل! ويؤمنون بشيء عالي المقام وشريف، ولكنَّ الوسائل والتعابير والرموز اختلفت. ولكن عندما تعرفت "زاهرا" عليهم أنقذت الناس من هذا الاجتياح العظيم، ومن حسن الحظ أنَّ الجنرالَ الفارسيَّ كان منفتحاً هو الآخر، ولعلَّ ذلك يعود لطبيعة الإمبراطورية الإيرانية القديمة التي كانت تخضع الكثيرَ من الأمم فاحتك بواسلُ هذه الإمبراطورية بالعديد من الأديان والمذاهب والأجناس، ولعلَّ ذلك مؤدَّى انفتاح هذه الدولة وتسامحها مع الشعوب نسبة لباقي الإمبراطوريات التي سبقتها. ومن حسن الحظ كذلك وجود الجنود - الذين صادفتهم "زاهرا" -، فقد كانوا أصحاب نفوس الطيبة، نفوس كانت عاملاً أساسياً في توصيل الفكرة المصيرية وهي: أن هؤلاء أيها الجنرال العظيم، هم أناسٌ مثلك، وليسوا كهنة آمون، وبالمنطق أُثبت ذلك للجبار، وأُوقفَ الزحف والإعدامُ، فالمعركةُ في الحقيقة ليست في الأرض الفسيحة، بل في قلب كل إنسان، بين أنانيته وإنسانيته، وسلاحُ الأنانية الجهلُ، أما سلاح الإنسانية فالعقل والمنطق والفطرةُ البريئةُ المتعمقةُ في كل إنسان، فإن غلبَت الأنانيةُ استمرت المعاناةُ البشريةُ، وإن فازت الإنسانية اندثرت المعاناة التي سببها أفعال الانسان المتعمدة، وأُوقف الزحف، وكان الاجتياح البربري اجتياحاً أخيراً.

بفوز الانسانية سيكشف الفرد في النهاية أنَّ كل الجماعات التي كان يراها تحت عنوان (الغير) هم من جنس الإنسانٌ (نفسه)، والإنسانٌ يريدُ الخيرَ للإنسان، لكلِّ إنسان، هذا شعورٌ داخلي يعمٌّ كلّ إنسان، هذه هي الإنسانية، وهي فطرة بريئة سليمة مزروعة في كل من ينتمي إلى جنس الإنسان، فيشعر بالإخوة الإنسانية والعطف على الغير، وتمني الخير له، ولكنَّ ذلك كله يكون إن خسرت أنانيتُه في معركة النفس.

إن غَلَبَ المرءُ أنانيته فإنّه سيعلم بأنَّ الآخر ينتمي إليه وهو ينتمي إلى الآخر، سيعلم الوالكوتيون أن هؤلاء البرابرة من نفس طينتهم الإنسانية وأهدافهم الحقيقية هي نفس الأهداف، كل ما يحتاجه هو أن يتعرَّف ويتأملَ بعيداً عن محاولات تقديس الذات فقط لا غير. كما ستكتشفُ "زاهرا" فيما بعد أنَّها فارسية الأصل أيضاً! وكما يُعلمها بعض أفرادِ الجيش الفارسي بأن معنى "زاهرا" هي الوردة، فلولا ذلك الانفتاح لما اكتشفت أنهم جميعاً من أصلٍ واحد أيضاً! -وفعلاً كلنا من أصلٍ واحد، كلنا مخلوقات الله تعالى- وبذلك تكون "زاهرا" وردةً وزهرةَ السلامِ بالفعل، التي أوقفت الاجتياحَ الأخيرَ للبشريةِ، في ذلك العصرِ الغريب! انتهى.

# المؤلف في سطور

حسين علي عباسي دشتي. مواليد الكويت، 1984م.

حاصل على شهادة بكالوريوس في العلوم السياسية من جامعة الكويت.

حضر دروس الحوزة العلمية في الكويت في منطقة الجابرية مدة 5 سنوات، ثم تفرغ بنفسه بدراسة علوم الحوزة العلمية ، منتهيا من المقدمات والسطوح الاولى معتمدا على دروس آية الله السيد كمال الحيدري.

كتب 16 مؤلفا وبحثا في مختلف المجالات.

طُبع منها كتابين: ذو القرنين .. من هو؟ ، و غضب الزهراء.

نشر له عدة مقالات في الصحف الكويتية

# الفهرس